

www.kotobarabia.com
رواية
المرايا المتقابلة
www.kotobarabia.com
عبد البديع عبد الله

المرايا المتقابلة

رواية

عبد البديع عبد اللّه

الفـهــــرس

الموضوع

فكـريـــة

في صباح أحد أيام أبريـل، والجـو شـائط بغبـار الخماسين، جاءت الكشك امرأة تلتف بملاءة سوداء.. وبيدها ابنها. كتلة من اللحم المتحرك. لا تبدو ملامح وجهـه مـن التورم. جاحظ العينين. يغلب عليه البله. مدت المرأة رأسـها من شباك الكشك الصغير وقالت:

- الست فكرية.
- قلت:
- نعم.
- قالت:
- أنا نفوسة. زوجة عبده.

تيقظت حواسى.

زوجة عبده صاحب الكشك؟

وخرجت إليها. رحبت بها. قدمت لها صندوقا مـن صناديق الكازوزة الفارغة. جلست عليه. وجلس الطفل على حجر بجانب الكشك. أخرجت منديلا من صدرها ومسـحت عرقها. سكتت فترة حتى هدأت. فتحت لهما زجاجتى كازوزة

وقدمتها لهما. سألتها عن أحوالها وعـن عبـده. قلـت لهـا اعذرينى.. لم أعرف عنوانكم. ولم يشأ عبـده أن يعطينـى العنوان لأسأل عنكم.

-بلعت المرأة ريقها وقالت:

- أعرف كل شىء. وهو يشكر فيك أمانتك وحسـن أخلاقك. ثم زفرت كأنها خارجة من جحـيم، وقالـت فـي حسرة:

- نهايته. الغربال الداير...

قلت:

- هونى عليك، فما حدث وعد ومكتوب.

قالت:

- لا يا ست.. بعيد عنك.. طمع الدنيا. كانت حياتنا معدن.

وهزت رأسها آسفة.

- الأمر لصاحب الأمر.

قلت:

- الكشك ملكك من الآن. وحقك محفوظ. ويمكنك أن تستلميه من الآن.

أشارت بيدها رافضة وقالت:

- أصبرى على يا ست. قال لى عبده كـل شـىء.

ونظرت متضرعة إلي السماء وتابعت:

- ربنا عالم بكل شىء. عالم بحالنا. كلـه ضـاع، ورجعنا على الحديدة. الشىء الوحيد الباقى هو الكشك. الحمد

.

قلت مواسية:

- هو رزقك ورزق عيالك حتى يفرجها ربنا ويفـك سجنه.

نظرت إلي يائسة مستبعدة.

- يفك سجنه؟ يفك سجن أربعين سنة؟ يا ترى مـن يعيش!

قلت:

- الأمل في ا كبير.

وأعدتها إلي قلب الموضوع الذى أدركت أنها جاءت من أجله.

- وكما قلت لك الكشك لك ولأولادك من الآن.

قالت وهي تشير بيـدها أن أنتظـر، وتبلـع ريقهـا بصعوبة:

- يا ست فكرية.. انا لا اصلح لأى عمـل. الشـىء الوحيد الذى كنت أصلح له هو خدمة عبده وحسنين ابنـى.. اشترط على منذ تزوجنى أن أكون في البيت لخدمته. ويشهد ا أني ما قصرت معه، لكنه...

أشارت بيدها محاولة تهوين محنتها.

- الأمر .

وتابعت: في آخر زيارة وصف لي الكشك. كلمنـى عنك وعن أمانتك وطيبة أخلاقك. وطلب منى أن يكون كـل شىء كما هو. نحن لا نريد إلا الرزق والستر.

أدركت أنها لا تصلح للعمل ولا تريـده. أحسسـت بمسئولية عنها وعن ابنها. ولكن كيف أبرىء ذمتى عنـدما يخرج عبده ويطالب بحقوقه المالية؟ أجلت التفكير في الأمر، وطمأنت المرأة أن كل شىء سيكون كما تريد وأكثر.

قلت لها:

- لم لا تأتين وتجلسين معى بـدل قعـدة البيـت.. وتكون تسلية لك ولحسنين، وتعرفي حقوقك؟

قالت مترددة:

- أنا لا أصلح.

قلت مشجعة:

- بل تصلحين. أنت ما زلت شابة، وعملنـا لـيس صعبا.

سكتت مترددة فقلت أثيرها:

- هل تفكرين في الطلاق؟

قالت:

- وهل أعيده؟ أنا سأعيش لرعاية حسنين.

قلت:

- إذن مكانك معى هنا.. والرزق على ا .

وأعطيتها مبلغا لتدبير أمورها وقلت:

- الزيارة القادمة لعبده نكون معا ونتفاهم معه على ما يجب عمله.

قالت:

أنت طيبة يا ست. عبده انتهى.

قلت:

- هو صاحب الكشك وله على حقوق.

* * *

استرحت بعد زيارة عبده بصحبة زوجته، واتفاقنـا أنها ستكون مكانه وتأخذ الإيراد. ودوری معها كدوری معه. واسترحت أكثر حينما بدأت المرأة تخلع المـلاءة السـوداء وترتدى ملابس عملية أكثر ومحتشمة. كانت تحضر صـباح كل يوم بانضباط موظف عريق ما عدا يوم الزيارة. المـرأة جميلة وازداد بريق جمالها بعد أن انزاحت همومها، ونظمت حياتها، وجرى القرش بيدها.

* * *

قالت لى نفوسة في لحظة رضى وقد ألفتنى:

-المرأة لا قيمة لها بغير رجل، لكن صنف الرجـال نمرود..

خبطتنى الكلمة ونبهتنى، لكنى ابتسمت أشجعها وقلت:

- هل اشتقت إلي الزواج؟ أنت ما زلت على ذمته.

رفعت رأسها في الهواء وقالت:

- زواج! لا...

مطت "لا" بثقة أخافتنى.

مددت لها حبل الوداد وقلت أستدرجها:

-ماذا يدور برأسك؟

قالت:

- ابدا.. لا تخافى على. لن أقع مـرة أخـرى فـي سجن الرجال.

ثم قالت بعينها وحاجبها:

- يكفى من الدست مغرفة.
- قلت:
- لا أفهم.

قالت:

- أنت طيبة يا ست فكرية.. لكنك محرومة من نعيم الدنيا.

قلت، وقد لطشنى أسلوبها وجرأتها:

- جائز يا نفوسة.. لكن لا أشعر بحاجة إلـي مـا تلمحى له.

قالت بدهشة:

- يجوز.
- ثم رمتنى بنظرة إشفاق أفزعتنـى ممـا تخفيـه بداخلها.

* * *

غابت نفوسة عن الكشك أسبوعا لا أعـرف عنهـا شيئا.. ولا أعرف ماذا أفعل لها. كانت تغيب يوما أو يومين وتأتى. تقول لى من غير أن أسألها:

- كنت أعد لقمة لعبـده.. أو.. كنـت تعبانـه.. أو حسنين كان عنده جلسة علاج كهربائى بالمستشـفي.. لكـن أسبوع؟ هذا كثير يا نفوسة.

ذهبت إلي بيتها بحوش آدم.. كانت المندرة مغلقـة. سألت الجيران.. لم يعرفوا.

لكن نظراتهم لم تعجبنى ذبحونى بنظرات من تحـت لفوق ومن فوق لتحت. وسمعت تعليقات جارحة "ومن تكون هذه أيضا!". وسمعت جملة أدركت مغزاها الجارح.

- لا شبابا ولا جمال.

هربت بنفسي وقررت أن أهرب بجلدى من الغمـز واللمز. أعوذ با . أى ناس هؤلاء! اين أنت يا نفوسة؟ وماذا أفعل من أجلك؟ حية أو ميتة أنت؟ هل أخبر عبده؟ لكن.. هل يطلع بيده شىء؟ كل ما أجنيه عليه بخبر كهـذا أننـى أزيـد همومه وأقتله شكا في زوجته، وحزنا على ابنه. هل أنشـر

إعلانا بالجرائد؟ بلا خيبة. هل أبلغ الشـرطة؟ أسـأل فـي المستشفيات؟ ماذا أقول؟ صاحبة كشك اختفت؟

أسبوع كامل يا نفوسة! اللهم اجعله خيراً.

* * *

على باب الكشكك جاء عسكرى بورقة استدعاء إلي قسم قصر النيل. سألته:

- أين قسم قصر النيل؟

نظر لى نظرة وقحة وقال:

- ألا تعرفين مكانه؟

قلت بشجاعة مفاجئة:

- لو كنت أعرف ما سألتك.

وصفه لـى.. شـرب زجاجـة البـارد.. ودخـن سيجارتين.. ولهف باقي العلبة.

* * *

في القسم قابلنى صول نكد بسلسلة من الإهانات:

وأنت مين؟

قدمت له ورقة الاستدعاء.

مسحنى بنظراته كما فعلت من قبل نساء حوش آدم، وضرب كفا بكف وقال:

- على إيه؟

لعنت الساعة التى جاءتنى فيهـا نفوسـة.. واليـوم النحس الذى عرضت عليها الشغل معى. وقلت في نفسـى.. "وماذا كان يجرى لو اكتفيت بإدارة العمـارة وبعـدت عـن المشاكل المريبة؟".

تماسكت وبلعت ريقى وقلت للصول بأدب مغيظ:

-يا حضرة الصول. أنت استدعيتنى.. مـن فضـلك أعرف الموضوع.

نظر لى بمزيج من الشك وعدم التصديق ثـم أشـار بيده أن أسكت. وسكت. استدعى نفوسة. رأيتها، ولم أصدق. أستغفر ا العظيم. وجه ملطخ بأصباغ، وملابس شبه عارية.

وفهمت.

نظر الصول إلي وقال:

- تعرفي القحبة؟

سكت. بلعت ريقى. قلت:

- صاحبة الكشك الذى أعمل به.
- كشك دعارة يا أولاد الـ...

قلت:

- أنا في الكشك من عشر سنين، وسمعتي يشهد بها كل الناس.

قال بغيظ مكتوم:

- استلميها.

وعقب:

- هذه المرة نفدت من النيابة لعدم التلبس:

المرة القادمة سجن يا أولاد الـ...

دار الدنيا برأسى. مـادت الأرض مـن تحتـى. لا أعرف كيف خرجت من القسم وهي خلفى. من حسن الحـظ كان تاكسى ينزل ركابه، فدخلت ورائى وقلت للسائق:

- مصر الجديدة يا أسطى.

في التاكسى حاولت الكلام.. أسكتها حتى لا يسـمع السائق. بعد وصولنا أدخلتا شقتى بالعمارة. غسلت وجههـا وارتدت ثوبا من ثيابى قصرته لها بـإبرة وفتلـة "سـراجة" وخرجت بها إلي الشارع.

قلت لها بكراهية عميقة:

- اسمعى يا نفوسة. إلي هنا وانقطع ما بيننا. أنـت حرة في نفسك. خذى مفاتيح الكشك، وا   الغنى عن شغلك.

بكت المرأة، انكسرت عينها ولم تجرؤ على رفعهـا في وجهى.

قالت:

- أنا مظلومة يا ست.. وا   مظلومة.
- غضبت أكثر.

قلت:

- هل الحلاف با   سهل يا كذابة؟ ألم يقبضوا عليـك في شقة مفروشة.

قالت:

كنت أغسل ملابس السكان.

قلت أكذبها:

- وهل ينقصك غسيل؟ ألا يكفيك مكسب الكشك؟
- بكت، وقالت:
- أنا امرأة ضعيفة.. لا أستغنى.
- قلت بحدة وبغضبى المستمر.

اطلبى الطلاق، وتزوجى على سنة ا   ورسوله.

قالت:

- من يتزوجنى بابن معاق؟

قلت:

ظل رجل ولا ظل البوليس.

قالت:

-وهل يسكت عبده؟ أنت لا تعرفينه. سيقلعنى مـن الكشك.. أنا أعرفه.. حتى وهو في السجن يستطيع إذلالى.

أدهشتنى المرأة.

إلي هذا الحد تخاف من عبده؟ حتى وهو سجين.

قلت بتصميم:

- وهل سيسكت على تفريطك في عرضه؟

توسلت:

- استرى على يا ست.

قلت:

- أنا لن أتكلم.. لكن أنت لن تسترى نفسك. جيرانك يحسون بكل شىء.

قالت:

- لا يهمك الجيران. دعيهم لى. أعرف دواء لكـل واحدة فيهن.

قلت:

- أفعلى ما تشائين.. أما أنا فمن الآن لا صلة لـى بك أو بالكشك.

توسلت إلي:

- ساعدينى يا ست فكرية، ولن تندمى. لا تتركينـى وحدى.

وهل يعتدل المائل؟

قالت بوعد:

- يعتدل يا ست.. فقط لا تتركينى.

- سكت على مضض.. اغتصبت كلمة مـن وراء قلبى:

ادخلى شقتى استريحى.

قالت:

- لا. يجب أن أحضر حسنين.

تذكرت الطفل.

قلت:

- واين هو؟

- قالت:

- عند بواب البيت المشئوم.

* * *

جاءت نفوسة صباح اليوم التـالى فرحـة كطفلـة. بادرتنى بقولها:

- حصلت على الطلاق من عبده.

سألتها:

لم تقولى إنك تسعين في الطلاق.

قالت:

- كنت خائفة... شجعنى عبده.. فطلبت الطلاق. تم كل شىء أمس.

قلت:

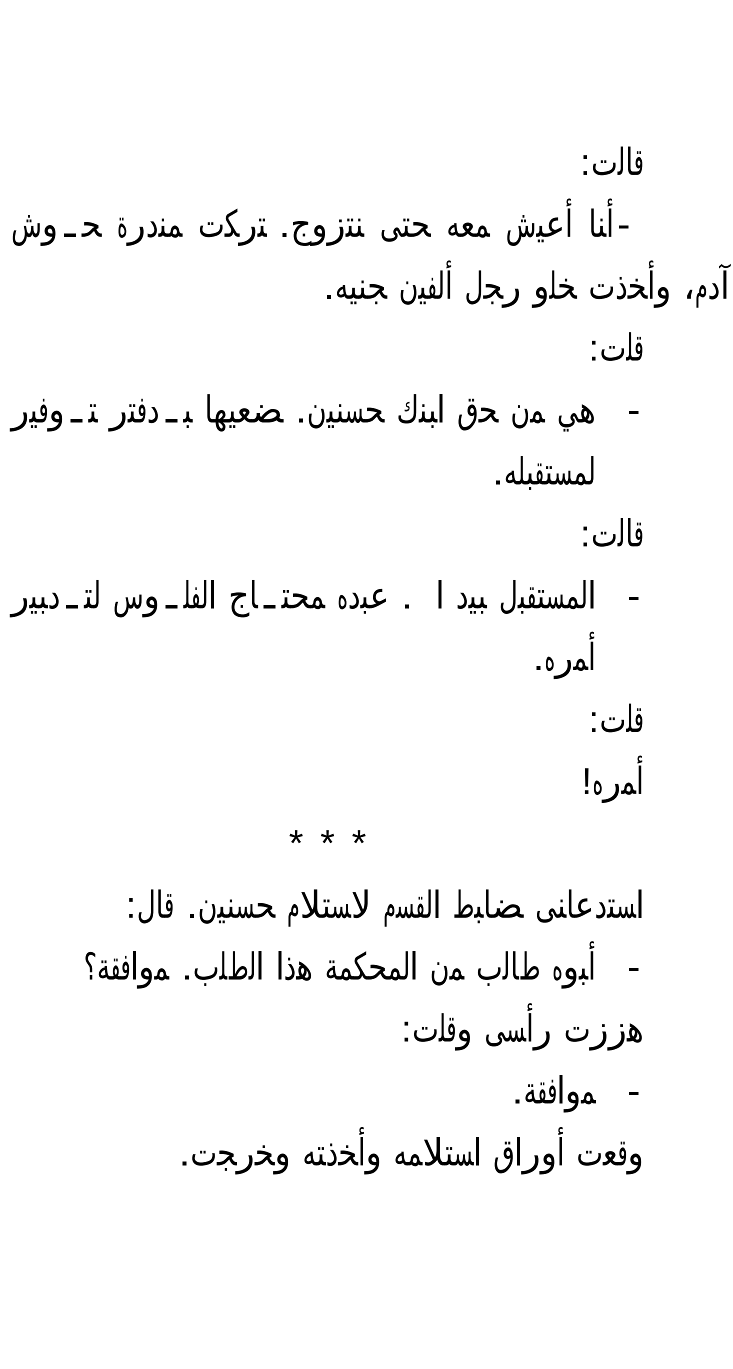
- عبده من؟

قالت؟

- بواب عمارة قصر النيل.

قلت بسخرية غير ملحوظة:

- وأظنه العريس المنتظر.



قالت:

-أنا أعيش معه حتى نتزوج. تركت مندرة حـوش آدم، وأخذت خلو رجل ألفين جنيه.

قلت:

- هي من حق ابنك حسنين. ضعيها بـ دفتر تـوفير لمستقبله.

قالت:

- المستقبل بيد ا . عبده محتـاج الفلـوس لتـدبير أمره.

قلت:

أمره!

* * *

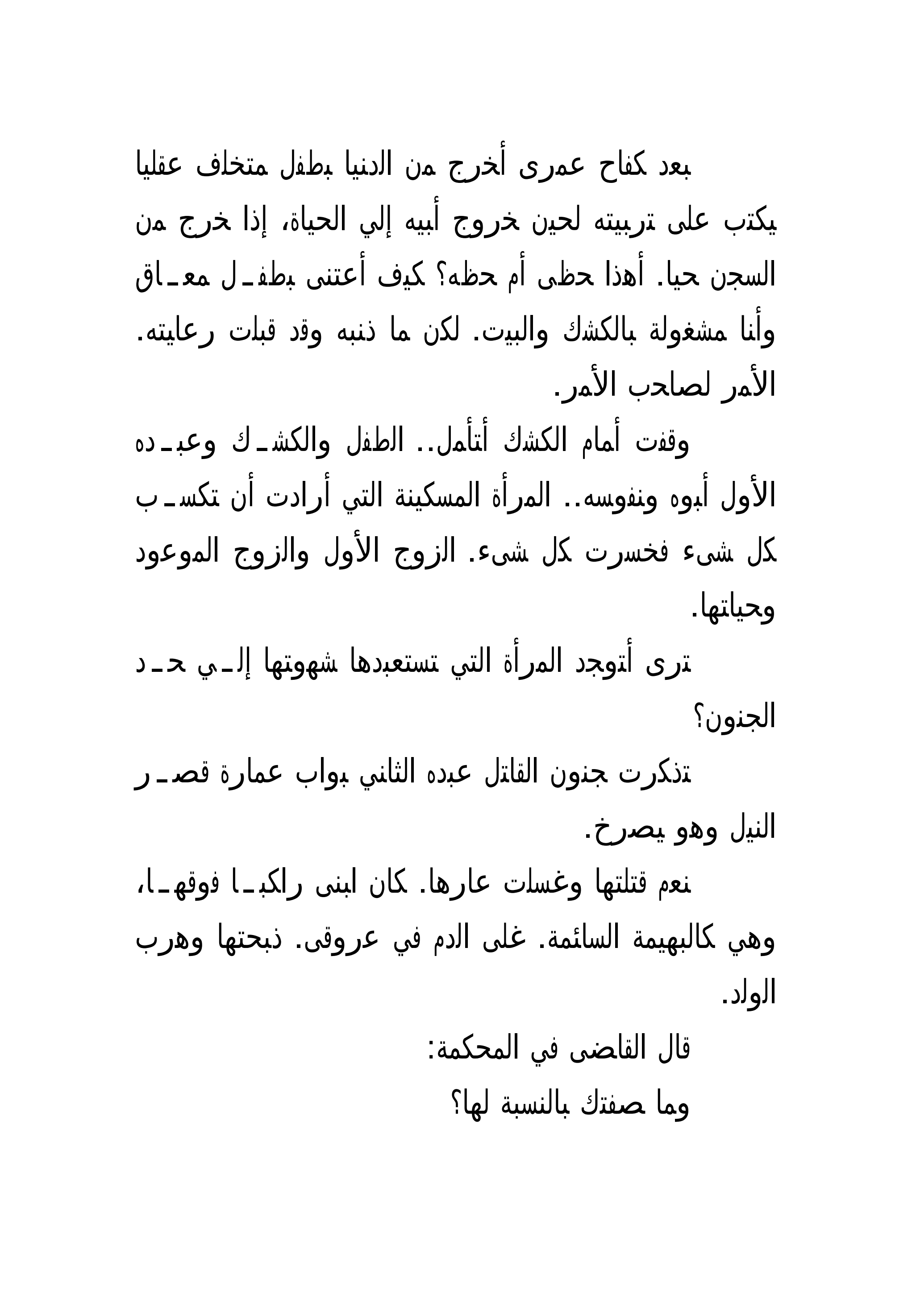
استدعانى ضابط القسم لاستلام حسنين. قال:

- أبوه طالب من المحكمة هذا الطلب. موافقة؟

هززت رأسى وقلت:

- موافقة.

وقعت أوراق استلامه وأخذته وخرجت.



بعد كفاح عمرى أخرج من الدنيا بطفل متخلف عقليا يكتب على تربيته لحين خروج أبيه إلي الحياة، إذا خرج من السجن حيا. أهذا حظى أم حظه؟ كيف أعتنى بطفـل معـاق وأنا مشغولة بالكشك والبيت. لكن ما ذنبه وقد قبلت رعايته. الأمر لصاحب الأمر.

وقفت أمام الكشك أتأمل.. الطفل والكشـك وعبـده الأول أبوه ونفوسه.. المرأة المسكينة التي أرادت أن تكسـب كل شىء فخسرت كل شىء. الزوج الأول والزوج الموعود وحياتها.

ترى أتوجد المرأة التي تستعبدها شهوتها إلـي حـد الجنون؟

تذكرت جنون القاتل عبده الثاني بواب عمارة قصـر النيل وهو يصرخ.

نعم قتلتها وغسلت عارها. كان ابنى راكبـا فوقهـا، وهي كالبهيمة السائمة. غلى الدم في عروقى. ذبحتها وهرب الولد.

قال القاضى في المحكمة:

وما صفتك بالنسبة لها؟

كنت أنوى الزواج منها.

أنا الذى ساعدتها على الطلاق مـن زوجهـا الأول تخوننى مع ابنى!

ولحق عبده الثاني بعبده الأول.

وصار الطفل معلقا برقبتى.

قررت عرضه على الأطباء المتخصصين فـأجمعوا على حاجته إلي تربية فكرية بالمدارس التـي تـرعـى هـذه الحالات من المعاقين.

ذهبت به إلي المدرسة وأنهيت إجراء قبوله.. كتبـت وصية داخل مظروف عليه كلمة "يفتح عند وفاتى" قلت فيه:

في حالة وفاتى أفيد أن الطفل حسنين عبده حسنين له حساب بصندوق توفير البريد برقم... وهو حصة والده مـن دخل الكشك المملوك له وأعمل به. والمبلغ يـزداد شـهريا بمقدار الربح.. وهو صاحب الحق فيه بعد والده.

ووقعت باسمى "فكرية حسن محمد".

* * *

لولا صلابة هذه الزوجة لانتهى إلي الدروشة، ولبس خرقة الصوف، لكنها مصرة على إخراجه من أزمته. تقـول دائما كلما تحادثنا:

"ما دام المجتمع غير ديموقراطى، فصراع الأنظمـة عنيف، ودموى، وضحاياه هم أصحاب القيم النبيلة".

قلت:

هل تنجح في إخراجه من عزلته؟

قالت:

هي مصرة.. يجب أن تنجح. من أجل أحمد.. ومـن أجل الابنة.. ومن أجل مستقبلهم.

قلت:

وأصدقاؤه القدماء؟

قالت:

الذى يزوره بانتظام.. حسن هلال ونبيل خلف. أمـا عمر فمستغرق في عمله، يتحاشى الزيـارات المشـبوهة – وتقريبا انقطعت صلته بهم.

دهشت.. هل زيارة أحمد الزاوى تخيف إلـي هـذه الدرجة؟

وخطرت لى فكرة.. قلت:

هل يمكن أن أقابله؟

قالت بتردد:

أحاول.

ثم لمعت عيناها متحمسة للفكرة:

لم لا ؟ قد يكون تأثيرك عليه أقوى وأفعل.

قلت بصدق:

ليتنى أفعل شيئا من أجله، وأنجح.

* * *

قال أحمد:

الشخص الوحيد الذى يسعدنى لقاؤه في أى وقت هـو أنت. شكرته بلسـانى وبابتسـامة ودودة مخلصـة. أشـعر بالامتنان الدائم والشكر للأستاذ أحمد. فعل من أجلى الكثير، فهل حان الوقت لأسدد له بعضا من معروفه. حاولت أن أبدو بالصورة القديمة التى تشعره بحاجتى إلي مساعدته ونصحه.

قلت بسعادة حقيقية وبعفوية:

- زمن طويل يا أستاذ أحمد لم نرك.

هز يده في الفضاء بينى وبينه وقال:

- مشغوليات وظروف. أنت تعـرفين كـل شـيء وتتابعينني كما أتصور ، ولكـن حـدثيني عـن نفسك.. وأحوالك. إلي أين انتهى بك المطاف؟

احترمت محاولة تماسكه.. الاهتمام بحالي والرغبـة في الاطمئنان عن أحوالي. لم يخف ظـاهره الواثـق تغييرات لاحظتها بوضوح.. في عينـين ذابلتـين.. وملامح حزينة أقرب إلي اليـأس.. بـرغم ابتسـامة تحاول اختراق جمود وجهه فتبدو باهتة. قلت معلقـة على لحيته الجديدة الكثة:

- أهذا تعبير عن التمرد أم الاستسلام؟

نظر لي محاولا إيقاظ وعي نائم وقال:

- يتساوى التمرد والاستسلام.

رفعت حاجبي دهشة فأكمل:

- في بلادي يستوي الأمران.

التمرد.. وهو عمل فردي لا تسـمح بـه السـلطة وتضربه بقبضة قوية تنتهي بصاحبه إلي الاستسلام.

- لكنك لم تكن متمردا. كنت جزءا من نظـام لـه شرعيته.

- وفي نظام جديد سلب التغيير شـرعيته.. صـرنا أعداء النظام المتربصين.

قلت:

-لكنها توترات التغيير. انقباض. شد وجذب. ثم تعود الأوضاع إلي طبيعتها.

ضحك وقال:

- رائع.. عزيزتى.. تطور إدراكك، من الواضـح أنك تسيرين في طريق صحيح. وزادت تعبيراتك عقا.. ووعيا.

قلت متصاغرة:

- يا أستاذ. أى إدراك وأى عمق وأنا.. منذ أستيقظ في الصباح إلي أن أضع جسمى على منامتى في الليل.. واقفة داخل كشك أو خارجه أعمل كماكينة لا تكل. وفي أوقات قليلة أقرأ مـا تيسـر مـن عناوين الجرائد وبعـض المقـالات بـالمجلات المعروضة. لا أكمال مقالا أبدا.

أشاح بيده وقال آسفا:

- لم تخسرى شيئا فكل الكتابات موجهة. لـم يعـد بالبلد إلا صوت واحد.

قلت:

- أستاذ أحمد. أنت تقصد السادات؟

- سكت.

- قلت:

- أستاذ أحمد.. أنا أشعر بألمـك. فنـان مرهـف.. ثورى صادق.. وناصرى مخلص. كنت تتوقع التصـعيد أو على الأقل الظهور والنجاح بأى شكل مناسب. وكانت النتيجة مؤسفة جدا.

تمتم:

- نعم.. مؤسفة ومؤيسة.

قلت متشجعة بتجاوبه معى:

- هل نسيت يا أسـتاذ أحمـد أننـا مجتمـع غيـر ديموقراطي. ودائما لم نكن ديمـوقراطيين؟ قـل يـا أستاذ. هل كنت شيوعية أو منتمية لأى تنظيم عنـدما قبضوا على وأنا لا أفهم شيئا عن هذه الاتهامات. ماذا

فعلت أنا وأمثالى؟ بل ماذا فعل مـن آمنـوا بمبـدأ واعتنقوه؟

أشحت بيدى.

يا أستاذ نحن مجتمع الحاكم. الكلمة تستمد قيمتها من مقعد قائلها. كلمة الحاكم لها بريق وذيوع واحتـرام. نحـن لسنا من العالم المتقدم. للكلمة قيمتها. ولقائلها حقه في إبداء الرأى والنقد. نحن لسنا في مجتمع يسقط الحكومة بسن قلـم رصاص تكتب به مقالة أو رأى.. نحن في مجتمع تقصـف سيوف الحاكم أى رقبة يرى أنها تتطاول عليه. هذا حالنـا. كان ومازال.

ابتسم أحمد الزاوي وقال:

- ممتاز.. أنا سعيد بك يا فكرية. صار إدراكك حادا، وعرفت الكثير، ومن الواضح أنك تعرفين الكثير.

بعد لحظة سكوت وتفكير قال:

-لكنك لم تقولي كيف نخرج من هذا المأزق؟

قلت بعفوية:

أنا؟ تسألني أنا يا أستاذ؟ أنت الذى علمتني الإصرار.. تسألني؟ أنت الذى وقفت بجانب كل تائه حائر تسـألنى؟ مـا

هذا التواضع يا أستاذ أحمد؟ أنت فنان عظيم. وإنسان عظيم.. وصاحب رؤية لا تحيد. أم أنه تواضع منك يا أستاذ؟

- ليس تواضعا صدقيني. لقد أغلقوا الباب أمامنا حتى الجامعة حرمت منها بقرار وعدت إليها بقرار.

قلت:

وليكن. كل هذا عرضى. مؤقت. ودائما.. لا يصح إلا الصحيح. هكذا علمتنى وعلمت زينب وعلمت الكثيرين. أنت.. معك ريشتك.. وقلمك. معك الفن الذى يستحيل تكميمه.

- ابتسم الأستاذ أحمد وهو ينهض:

- فرحتى بك لا توصف..

أنت دليل على أننا سرنا في الطريق الصحيح.

قلت له وأنا أصافحه بقوة أريد إثارة انتباهه:

- ويجب أن تستمر يا أستاذ.. أنت أستاذنا.. أملنا فيك كبير.

* * *

عزب بخيت

مرة أخرى تفتح الأبواب وتخرج إلي الـدنيا طليقـا. انتهت أيام الاعتقال وها أنت تتنفس بين كتبـك وأوراقـك. وبرغم مهارة اليد العابثة بالأوراق في غيابك، تكشف العبث عن ترتيب غير دقيق. وإهمال في اللحظـة الأخيـرة بعـد إدراك العابث –فيما يبدو- أن الوقت أسرع دون أن يجد ما يبحث عنه.

أتأمل نفسى والعالم وأتساءل.. ألا يزال الحصان قادرا على العدو الجامح، أم أصابه ما أصاب عالمنا الصغير من مهانة فانكسر.

ها أنت تستقبل عهدا جديدا مع عهد جديد فـإلي أيـن تسير؟ لم يكـن يعجبـك حكـم الكولـونيلات فـي زمـن العسكريتارية. كنت تصر أنها مرحلة وتنتهى.. بعدها يأتي دورنا.. فنسير بالمجتمع في طريق التقدمية. لم تغرك قشرة الأدلجة التي كسا الفكر بها نظامهم ليعطوه دفعة أطول إلـي الأمام. رفضت وارتقوا مراكز الإدارة في مؤسسات فاشـلة لا تنجح، حتى انكشفت خسارتها، وبدأ الندب والعويل يمهد

لتغيير جديد. من التأميم إلي الخصخصة.. يا قلبي لا تحزن. كلها تغييرات بقرارات إدارية.. الغالب فيها دائمـا السـيد الجالس على مقعده الوثير، والجميع من ورائه خاسرون.

زمن الردة والعمالة والسير في طريق الخيانة باسـم الوطنية فهل لك دور في هذه الزفة الجديدة، أم تجلس علـى مقعد في النافذة ترقب ما يجرى في الشارع مـن أحـداث لتشغل وقتك؟

* * *

لم يعترض أحد على سفرك. وافقت الجهـة الأمنيـة فورا بالرغم من ماضيك الحافل وحاضرك القريب. بـادرة حسن نية؟ أو أوامر؟ المهم أنك الآن محلق في الجو متجـه إلي روما بدعوة من الرفاق. هم يعلمون أنك مسافر إلـيهم. الدعوة واضحة. وتذكرة السفر محجـوزة سـلفا وتأشـيرة الدخول وصلتك وأنت في بيتك. فرط ثقة بالنفس؟ يجـوز، قبول التحدى؟ جائز؟؟ تخلص من وجودك المتعب؟ احتمال.

انتهى الاجتماع الذى بنيت عليه آمالا كثيرة بكلمـات قليلة. الانتظار. الانتظار. الانتظار. دوركم أن تتفاعلوا مـع

الأحداث ولكن لا تبـادروا. سـتحدث أزمـات متتاليـة.. اقتصادية وغذائية وعمالية..

تفاعلوا معها بحذر.. الـ "سى آى إيه" ترقـب كـل شىء.. تعد الأنفاس. "الموساد" ترصد أى حركة في المجتمع فور التفكير فيها. التنسيق قائم وقوى بينهما وأنتم الآن قلـة محدودة لن يسمح لها بالتأثير. التعتيم عليكم كامل. وتدميركم المعنوي مستمر.. "أوصيكم بمطاردتهم حتى بعد أن أموت.. طاردوهم". والمطاردة مستمرة بعـد أن أصـبحتم سـيىء السمعة كفرة عملاء شيوعيين.

موقف صعب لكنه مرحلى. لابد أن ينتهى هذا الزيف الكاذب إلي سقوط مدو. وقتهـا يبـدأ دوركـم، فتجمعـوا وانتظروا.

لم يعجبنى الكلام. هو بإيجاز دعوة إلي استسلامنا. لا عمل. ولا حركة. هو النهاية إذن لنـا وللحركـة التقدميـة العربية كلها.. ولعلى أقول للعالم التقدمى كله.

المكسب الوحيد الذى حصلنا عليه هو الإعلان عـن جريدة تنطق بلساننا باسم "الناس" يتم تمويلها حتـى تغطـى

تكاليفها من الإعلانات. ولما أبديت شكى فـي اسـتمرارها قالوا:

تعهد العهد الجديد بحرية الصـحافة وعـدم إغـلاق جريدة للونها أو اتجاهها.

قالوا لى بصراحة:

تأخرتم كثيرا بعد ظهور صحيفة "العمامـة"، وأختهـا "اللحية"، وثالثتهما "الرداء القصـير"، وطرحـت أدلجتهـا البديلة، وأنتم تواجهون الهجوم المستمر الضـارى. أفيقـوا وتحركوا. بإمكانكم كسب الغد إذا خسرتم اليوم.

* * *

كيف تكسب معركة بغير جيش! من بقى من الرفاق.. العاجز عن الإفلات إلي إحدى دول النفط. سـعداء الحـظ وجدوا فرصتهم بأوروبا في أعمال ودراسة، أمـا البـاقون فالتقطتهم الدول الناشئة لتصنع بواسطتهم وجـه حضـارتها الحديثة.. جيوش المدرسين والمدرسات والأطباء والطبيبات وموظفى الحسابات وعمال البناء وعمال النظافـة وسـائقى الشاحنات. الجميع تاه في متاهة البحث عـن رزق أوسـع،

وكلما جمع شيئا تظهر أشياء أخرى جديدة، وتستمر اللعبة، حتى يعود التائه في صندوق أو يضيع في دروب اللذة.

كيف نكسب معركة بلا جيش: علينا أن نبحث عن جيل جديد يتطلع إلي فرصة ينفذ منها ويعبر عن ذاته.

* * *

يئست من الاتصال مع أحمد الزاوى والتواصل من جديد معه. أنا الذى لم يعرف اليأس أعترف بعجزى عن إعادة الضلع الناصرى البارز في زمن الناصرية إلي السباحة معنا ضد التيار. مشكلته أنه انكسر مع أول تجربة للاعتقال. فقد ثقته حين استدار النظام وانقلاب عليه. هو وطنى بلا شك، لكنه غير مناضل. وطنى كمعظم الوطنيين الذن يكتبون موضوعات الإنشاء الجميلة، لكنه مع أول هراوة يهرب. نعم وطنى. ناصرى جيد الانتماء، لكنه لم يدرب داخل خلية مغلقة. مرهف ضعيف التحمل. لا يعرف كيف يحيل الألم إلي حقد يدفعه لتدمير عدوه. والغريب أني سمعت أنه أطلق لحيته وارتدى عباءة الصوف. فهل ذبلت نظراته وتاهت في الملكوت؟

* * *

أول اجتماع مع أركان الجريدة. أول اجتماع أعقده في النور. هل انتهى زمن الاجتماعات السرية؟ قلـت للجميـع بوضوح:

الجريدة يجب أن تولد قوية. مهمتكم أصعب مـن أى صحفى آخر. لن تجدوا مصـادر تشـجعكم. لـن تجـدوا معلومات وافية أو صحيحة. ابذلوا كل جهد. ابتكروا أساليب جديدة لتصلوا إلي الحقيقة التي يبحث عنها من يريدها. أريد صحيفة معارضة.. أى كشف المخفى وفضح المسـتور. لا أريد صحيفة صرح فلان. أريد للجريدة أن تكون صوت من لا صوت له.

أنهيت الاجتماع وأطلقت مجموعة الشـباب وبـدأت اجتماعا آخر مع عمال الطباعة والتوضيب.. أفهمت الجميع أننا مقدمون على عمل شاق فيه متاعـب وتحـد. طـالبتهم بالتقاط الخبرة من عمال الجريدة الواسعة الانتشـار والتـي تحتكر الخبرة والورق وآليات الطبع الحديثة. قلـت لهـم: أريدكم رجالا وهي فرصتكم لتنجحوا. قبل انتهاء الاجتمـاع طلبت إلي سيد المطبعجى أن يبقى وأفهمت الجميع بوضوح أن سيد رئيسهم ومرجعهم. بهذا أشعر بالراحة إذ أعطيتـه

حقا تمناه طويلا وكثيرا ولم ينله بسـبب سـجنه وانتمائـه الحزبى. أثناء حديثى مع سيد تذكرت تلك الفتـاة البسـيطة التى قدمها لى أحمد الزاوى ووجدت فيها خامـة صـالحة. تبحث عن عمل لتعيش منه. أحلامها محدودة. بلا طمـوح تقريبا. ترضى بكل ما يقدم لها. لم تناقشنى في راتبها. كـل همها أن تعمل لتعيش. ليست مثقفة ولا أظـن أنهـا مهيـأة لذاك. لكنها تتحرك كآلة مبرمجة جيدا. لا تتعب ولا تمـل. ملامحها لا تقول شيئا. كانت فتـاة مناسـبة للعمـل معـي بالشروط التى وضعتها لمن يعمل معى.. كثير من العمل.. قليل من الإزعاج. ويبدو أن سيد المطبعجي أرادها لنفسـه فتزوجها لكن الفتاة كشفت له أنيابها مـن اللحظـة الأولـى ورفضت وصايته ورفضت بإصرار غريب أن تترك العمل مع أنه بسيط وبإمكانها أن تجد مثيله في كل وقت. لا أعرف فيم تفكر لكن إصرارها أعجبنى ورضوخ سـيد لمطالبهـا أقلقنى، فما هكذا ربيته منذ التحق بالتنظيم. وأعتـرف أنـي وجدت في قصتهما تسلية مؤقتة. وكما توقعت كانت النهاية وانفصلا. لا هو خضع ولا هي رضخت. تنـافر القطبـان. وانتهى ما بينهما.

الذى فاجأنى في الموضوع أنها طلبت بأدب شديد أن تترك العمل. سالتها:

- إلي أين؟

سكتت.

سألتها:

- هل وجدت عملا آخر؟

هزت رأسها نفيا.

سألتها أخيرا:

- لماذا؟

قالت:

- لا أريد أن تتلاقى وجوهنا أنا وهو. سأبحث عـن عمل آخر وأجده.

أعجبتنى جرأتها. قدمت لها مكافأة سخية حتى تـدبر أمرها، وطلبت منها أن تكون على اتصـال بـى لأطمـئن عليها. شكرتنى وخرجت.

جاء سيد عدة مرات بأسباب واهية كنت أدرك أنه يود أن يراها. لعله يريد استفزازها. لعله يريد ردها. قلـت لـه بوضوح كاشف: هي ليست هنا.. تركت العمل. حـاول أن

يتجاهل.. لكنى أسكته.. يا سيد.. البنت عنيدة ولا تصلح لك. تركت الجمل بلا حمل، فانسها وعد كما أعرفك.

تذكرتها لأمر هام فاستدعيت "قدورة" الساعي. الأوراق التى أرسلتها إليها. أما زالت تحفظها؟

قال قدورة إنه أعطاها لرجل طيب سلمها لها.

كتبت لها خطابا.

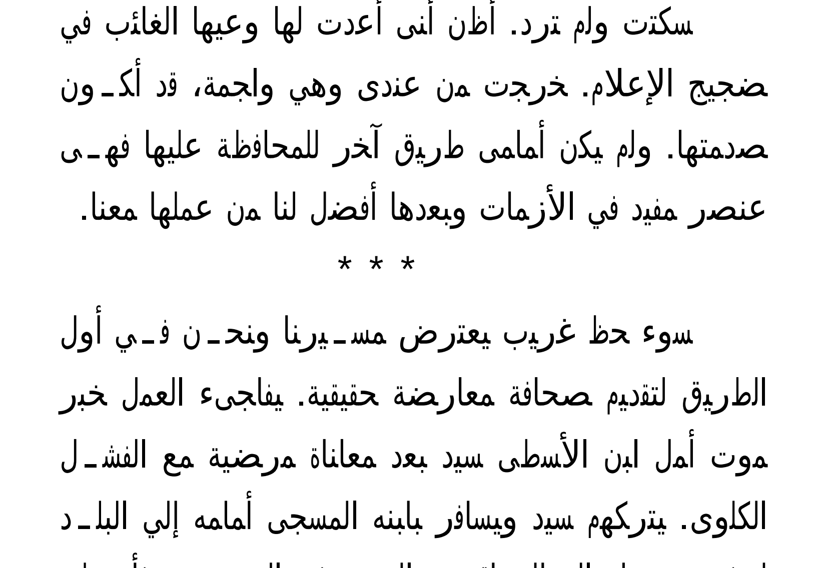
قلت له:

- أريد الأوراق اليوم. الآن إذا أمكن.

قدمت لنا الفتاة خدمات بسيطة لكنها هامة في وقتها. كانت سعيدة وهي تنفذ ما أطلبه منها كأنها جندى بباب قائد قوى. الغريب أنها رفضت ثمن ما فعلت.. مع أنها عرضت نفسها لخطر الاعتقال، لكنها نجت.

غريبة حظوظ الناس. تعتقل مرة ومرة ومرة دون سبب، فإذا وجد السبب تنجو من السجن بقدرة غريبة. أهى مهارة منها؟ لا أعرف. ويبدو أنى سأغير نظرتى إليها بعد التطور الذى انتهت إليه. بائعة جرائد كسيبة. عرفت طريق الادخار في زمن وغد. ثقفت نفسها بالقراءة. استعانت بى لمساعدتها فقدمت لها حزمة من الكتب الأدبية السهلة

هضمتها فأعطيتها كتبا ثقافية. واستمرت تزورنى وأعطيتها الكتب. نضج عقلها.. اتسـع إدراكهـا بالحيـاة والمجتمـع والعالم. صارت تسأل وتنصت لى وأنا أشرح. حتى فاجأتنى في إحدى الزيارات بدفاع خجول عن السادات. وما أحدثـه من "نهضة" –على حد قولها- وتعمير وطـرق وإصـلاح. انبهرت الفتاة بشخصه فأهملت واقعها. أذكر أنى بذلت معها جهدا لأعيد لعقلها اتزانه. شرحت، وأفضت عن الفرق بـين البناء الحقيقى وأعمال المرتزقة والانتهازيين مـن متسـلقة العصر. شرحت لها كيف ينزلق المجتمع إلي الرأسـمالية. أفهمتها كيف نعود بسرعة إلي مجتمع النصف في المائـة. سألتها "كم مصنعا جديدا أنشـأها السـادات؟ كـم قيراطـا استصلحها؟ قلت لها إن آخر مصنع أنشأة عبد الناصر هـو مجمع الألومنيوم بنجع حمـادى؟ فمـاذا فعـل السـادات؟ والحديث كل يوم عن تبرير الغلاء". هل سمعته وهو يقـول إن الغلاء سببه أن الأرض صار لها قيمة وهذا هو المقياس. سالتها: ماذا فعل السادات للطبقة الكادحة مـن العمـال؟ لا شىء.



سكتت ولم ترد. أظن أنى أعدت لها وعيها الغائب في ضجيج الإعلام. خرجت من عندى وهي واجمة، قد أكـون صدمتها. ولم يكن أمامى طريق آخر للمحافظة عليها فهـى عنصر مفيد في الأزمات وبعدها أفضل لنا من عملها معنا.

* * *

سوء حظ غريب يعترض مسـيرنا ونحـن فـي أول الطريق لتقديم صحافة معارضة حقيقية. يفاجىء العمل خبر موت أمل ابن الأسطى سيد بعد معاناة مرضية مع الفشـل الكلوى. يتركهم سيد ويسافر بابنه المسجى أمامه إلي البلـد ليدفنه، ويترك العمال ناقصى الخبرة في التوضيب، فأضطر لطلب المساعدة من سكرتير تحرير الأهرام لإنقاذ الموقـف وإنجاز العدد. ما أن انتهينا من أخذ "بروفـة" العـدد حتـى استأذن العمال للقيام بواجب العزاء نحو زميلهم. كنت معهم لولا أن فاجأنا سيد بالحضور للعمل، فلما قرأ الدهشة علـى الوجوه قال:

- العوض على ا .. والعزاء في العمل.

-كان يحاول أن يظهر بمظهـر القـوى.. الـذى لا يعوقه عن أداء واجبه شىء، لكنه كان مهموما حزينا، يحمل على كاهله أثقال الزمن.

قلت له محاولا تفجير أحزانه:

- كان الواجب أن تأخذ قسطا من الراحة و..

قال بصرامة لم يعتدها معى:

-الواجب أن أعمل.. أعمل.. أعمل.

ونظر لى بحزن وانكسار:

من أجل الضرورات.. الأكل.. المعيشة.. مصـاريف الجامعة لفريدة.

وبابتسامة حزينة:

- الحزن ترف لا نقدر عليه يا أستاذ.

قلت له مربتا على كتفه:

- الجميع تطحنهم الأزمة الاقتصادية.

وبعد لحظة صمت خاطفة لمعت في رأسى فكرة. قلت له:

- لماذا لا تلحق فريدة بالجريـدة.. أليسـت طالبـة بالإعلام؟

دعها تتدرب عندنا.

قال بتردد:

-لكنها في أول سنة..

قالت على الفور:

- وهل تخرجنا من قسم الصحافة؟ الحياة يا سـيد هـي المدرسة الكبرى التي تصنع العباقرة والعظماء.

قال ممسكا بالفرصة التى فتحتها أمامه:

- أقول لها.. بعد مرور فترة حدادها على أخيها.

قالت له بتصميم:

- أنت قلقتها يا سيد.. فلا تتردد.. الحزن ترف لا نقـدر عليه.. أحضرها وأخرجها من دوامة الحزن. ارم بها في قلـب الحياة.. العمل.. دعها تكتسب خبرتها.. تعتمـد علـى ذاتهـا.. تخفف عنك أعباءها.

بدت الراحة في انبساط توترات وجهه، وقال:

-أفعل. أعرض الفكرة عليها.. وأرى ماذا ترى.

ربت على ظهره وانصرفت راضيا وقد أخرجت سيد من يأسه وأعدته إلي صلابته وتحمله. وكما قال: "الحزن تـرف لا نقدر عليه".

* * *

أحمد الزاوى

أخيرا.. فتحت الأبواب وأطلق سراحى.

في القلب مرارة وغضب مكبوت. السؤال الوحيد يتضخم داخل عقلى، ويصطك.

لماذا؟

في السجن عجزت عن التفكير. عشت تجربة أخوضها لأول مرة. ألوان من البشر لا يتصور عقل أن تكون الحيطان المعتمة مصيرهم. العالم والسياسى والمفكر. حتى النساء لم ينجون من الحبس. لم يبق خارج السجن إلا اللصوص. لأول مرة، يجتمع اليمين واليسار والوسط.. المؤمن والملحد.. الرأسمالى والشيوعى.. في مكان واحد. فمن بقى بالخارج؟

حاول الصديق "عزب بخيت" أن يخفف من توترى:

- السجن الأول كالزواج الأول. مزيج من الخوف والرهبة. لكن الإنسان قدير على التأقلم، وإلا انتهت مسيرة الإنسانية عند أول صدمة.

فبم يخفف سجنى الثانى؟

دخل معى في حوارات كثيرة طويلة. انتقد كل شىء. الماضى والحاضر. لديه قدرة هائلة على الـتحكم وضـبط النفس. يتكلم كسياسى عريف أمـام عدسـات التصـوير. يتجاهل واقعه.. يغيب حالة السجن عن وعيه. حرك.. دائما. تتحلق حوله جماعة.. تسأل.. يـتكلم.. ينـاقش.. ينفعـل.. يضحك.. يغضب.. كل عضلة في وجهة تعبـر.. تقـول.. تنقد.

خفف عنى كثيرا. بفضله، انـدمجت فـي مجموعـة المتناقضات المحشورة:

الوجوه المكتنزة وبين شفاهها السيجارة والسـيجار.. الوجوه الممصوصة وقد استطالت وبرزت عظام أكتافهـا.. وجحظت عيونها. وتساءلت:

ماذا فعل كل هؤلاء؟

مصيبة أمة أن يتحكم فيها صاحب مزاج سـوداوى. يعيش عزلة –اختارها- عن أمته. إذا كان واثقا في صـحة قراره، فلماذا الخوف؟

ماذا أفاده حزم الجميع في بوتقة واحدة؟

أبشع نهاية وقد غربلت صدره رصاصات موتور.

* * *

شتان ما بين جنازة وجنازة. البطل الذى رفعه الشعب إلي أسطورة يتمدد أمامهم في صندوق على عربـة مـدفع. العالم يشيعه.. حتى أعـداؤه شـاركوا بتشـييعه، والبطـل المعزول عن شعبه.. تحمله عربة مدفع في جنازة تسير في فضاء الصحراء، بعيدا عن الناس.

البطل المهزوم ترفـع جثتـه الجمـاهير.. والبطـل المنتصر تغربله الرصاصات.

"جئت لكم على طريق جمال عبد الناصر".

بداية عاطفية ذكية. ولكن.. شتان ما بـين الصـوت والصدى.. الأصل والصورة.. الحقيقة والزيف.

قلت يوما:

- إذا كان قدرنا أن نفقد بطلا في بـؤس الهزيمـة، فلنتحد مع القائد الجديد لنمحو العار.
- "الناصريون أولادى".

كشف الواقع معسول الكلام. أدرك الجميـع الكذبـة. قنوات سرية وحركة دائبة للتقرب مـن الأعـداء. رسـل

يذهبون.. رسل يفدون.. يلتقيهم بحفاوة المم ـتن. العلاقـات الرسمية مقطوعة، والقنوات السرية مفتوحة.

"الناصريون أولادى".

كل مظاهرة لطلاب الجامعـة أو عمـال المصـانع. يحبس شرطته الناصريين. يرى كل محتج ناصريا.

هكذا صارت الناصرية التى جاء على طريق زعيمها عدوا يوجه إلي صدرها أسلحته.

* * *

في البيت حينما فتحت الباب ورأتنى "أوندا" لم تستطع أن تتماسك فتحت ذراعيها أخذتنى في حضن طويل مشتاق. كانت "أوه" التي انفجرت من صدرها حنانا مكبوتا ينطلـق شوقه أغرودة حب غردت وطالت مدتها حتى انتهت باسمى "أحمد" أووووه.. أحمد" "استقبلتها أغنية شوق محـب طـال انتظاره وعذابه، وفاجأه الحضور على غير توقع. داعبتهـا "فردوس" محاولة الاستمتاع بالبهجة الطارئة.

أوه ماما.. دعى لى بابا مـن فضـلك –أنـا أيضـا مشتاقة. وخرجت من بين ذراعى الزوجة إلي حضن الابنة. بكت في حضنى وراحت تهمهم.. أوه.. بابـا.. أحسسـت

بالشفقة عليها، والحزن الجميل، فربتت يداى على ظهرهـا وأنا أخرجها من حضنى وأخطو بها إلـي الـداخل ويـدى تطوق ذراعها اليمنى وتضغط جنبها إلي جانبى مؤكدا لهـا عودتى. أهلا حبيبتى. وحشتينى.

تنسمت رذاذ المعطر.. انتعشت.. في الجو لسعة برد خفيفة بالرغم من الستائر الشتوية الكاسية والبساط الشـتوى الثقيل. نظرت بطرف عينى إلي زوجتـى حـين جلسـت وواجهتنى لحظة الغروب. تعرف أني أحب هذه اللحظة.

أنظر إليها من كل الزوايا ومن كـل الأمـاكن. مـن البحر.. من الصحراء.. من النافذة.. من القطار.. من قمـم الألب بإيطاليا.. وعلى ضفة النيل. تعـرف أنـي أعتصـر حواسى حين أذيب اللون كذوبان قرص الشمس فـي وجـه السماء. سحبت جانب الستارة لتعـرى النافـذة المواجهـة لمقعدى المفضل لعلى ألحق الشمس قبل غروبهـا. نظـرت إليها بطرف عينى وأكملت نظرتى إلي الشمس وابتسـمت.. ابتسم قلبها فاهتز جسمها.. علت الجبين بشاشـة وارتعـش صدرها. فهمت وفهمت. قامت إلي الداخل. عـادت تحمـل كوبا من عصير البرتقال قدمته لى، وقدمت الكوب الآخـر

إلي الابنة.. قامت مرة أخرى. تتحرك في البيـت برشـاقة طفلة وفرحة شابة بعرسها. مازالت أوندا الحبيبة هي هـي، الحماس الدائم للحياة والحب. وقفت أمامى:

- أحمد.. الحمام معد.. أنت بحاجة إلي الاسترخاء.

قلت لها:

- بل بحاجة إلي غسل همومى قبل غسل جسمى.

عاتبتنى نظرتها : "أحمد يجب أن تنسى".

نظرت إليها. كأنى أراها لأول مرة.. الجينز الأزرق الذى أحبه. جينز قديم.. تعرف أني أحبه. ضيق قليلا حول ردفيها... مشدود قليلا فوق بطنها، لكنى أحبه. هي تعرف أنى أحبه فارتدتـه لـى وفوقـه البلـوزة الوردية الجابونيز. أوندا لا تهتم ببرودة الجو مـا دام القلب دافئا.

كان لحن "الدانوب الأزرق" لشتروس ينساب هادئـا من ستيريو بحجرة المكتب.

حينما دخلت إلي حجرة النوم.. اختلست منهـا قبلـة وقلت:

- أحبك.. وأشكرك.

نظرت إلي مستفهمة، فنظرت إلـي الجينـز القـديم والبلوزة الوردية.

قالت:

-لأنك تحب أن تراه على.. لبسته.

قلت:

- يعيدنى إلي أيام جميلـة.. الدراسـة.. والحـب.. والخطوبة.

قالت:

- والزواج أيضا.

تابعت:

- أنا سعيدة برجوعك سالما.

قالت وهي تهم بالخروج من الغرفة:

- أكمل ملابسك وتعال لنجلس مع فردوس. مـا زال الوقت مبكرا. هززت رأسى.

* * *

في يوم من أيام روما الجميلة.. جلس شـاب عاشـق يناجى فتاة أحبها.. أمام تمثال رخامى للمصلوب.

ألن تندمى على الارتباط برجل شرقى فـي مجتمـع قلق؟

غضبت.

أذكر نظرتها. عتابها الغاضب:

- كيف تتكلم عن الندم وأنت تقولى لـى.. أحبـك؟ كيف تكون فنانا وتنكر الحب!

قلت مدافعا:

- لا أنكره.. لكنى لا أريد خداعك. مضـى زمـن المعجزات.

قالت:

-عن أى معجزة تكلمنى؟ أحمـد.. الحيـاة أعظـم المعجزات يا حبيبى. ما قيمة حياة بلا حب؟ هـل تقصـد المجتمع؟ أى إنسان لا يعنيه من كل الدنيا إلا بيت صـغير يعيش فيه سعيدا. هذا موجود دائما.. في أى مكان.. فـي روما أو في آخر الأحراش.

* * *

نادت من الخارج:

-أحمد..

بعد قليل.. كنت معهما.. أوندا.. وفـردوس. ثرثرنـا كثيرا.. تظاهرنا بالبراءة والسعادة وخلو البال. كـل منـا يحذر أن يقول كلمة تجرح متعة الجلسة.

لم يكن ذلك ممكنا حتى النهاية. لمست الابنـة اللغـم مرة، وانفجرت الكلمة. بعدها تدفق الكلام والغضـب بـلا حدود.

قالت الابنة:

لا تتصور صعوبة اليوم الأول بالكلية. اليـوم الـذى انتظرته ثمانية عشر عاما.. لأكون معك. أجلس أمامـك.. أتعلم.. أتأبط ذراعك فخورة. أبى الفنان يعلمنى.. كانـت لحظة صعبة حين استقبلنى اصدقاؤك ولم أجـدك. كـان ترحيبهم اعتذارا عن غيابك. انتابنى الإحساس باليتم.

قلت:

-نعم بالتأكيد. أنا أيضا انتابنى الإحساس بالفقد، وأنـا محروم من لحظة انتظرتها ثمانية عشر عامـا... أتـأبط ذراع ابنتى، ونتقدم معا إلي الحرم الجامعى.. هي تتعلم.. وأنا أعلم. جيل جديد أعلمه وأتعلم منه. وأجهضت العزلة الحلم. عشت يوما حزينا وابنتى محرومة من وجودى إلي

جوارها.. وأنا محكوم أن أبقى في ذلك المكان الكريه.. بلا منطق.. أو سبب معقول.

قالت أوندا محتجة:

- أوه.. الأزمة انتهت. من فضلكم.. لا تفكروا بهـذه الطريقة.. لا تعذبوا أنفسكم بالتذكر. دعونا نبتهج بعـودة بابا.

نعم أوندا.. معك حق. لكنا حق.لكنا هنا.. لن نستطيع الاستمتاع ببهجة الحياة.

صار اسمى مدونا بدفاترهم. عند الأزمة.. أى أزمة.. يجمعون بلا تفكير.. المعارضين والصامتين. نحن لسـنا بإيطاليا يا عزيزتى.

رن جرس الهاتف. أول اتصال يهنئنـى كـان مـن زينب.

قالت أوندا:

-زينب إنسانة أصيلة. تذكر فضلك وأخـذك بيـدها. فعلت المستحيل من أجلك باتصالاتها الواسعة.

قالوا لها:

-الإفراج مسـتحيل إلا بقـرار جمهـورى.. لكـن التسهيلات ممكنة. كانت تطمئننا يوميا عليك.

قلت:

- عرضت نفسها للمساءلة والحرج.

قالت زينب عبر الأسلاك:

- حمدا على السلامة.

وبمودة صادقة:

- أريد أن أراك. لكنى أتركك اليوم للأسرة.

شكرتها على جهدها وقلت:

- زينب.. نحب أن نراك دائما.. في أى وقت.. أنت منا. أسعدتني ثقتها وبشاشة صوتها. فرحة وبـراءة وقـوة. هكذا النجاح والصلابة في وجه الظروف المحبطة.

قالت الابنة فرحة:

- لا تشغل نفسك بالتليفون. وجهك يبدو متعبا.

قلت:

- أنا بحاجة إلي نوم عميق.

قبلتها، ودخلت إلي الفراش. تحسسته بجسمى أحـاول استعادة الألفة مع أشيائى. أوندا.. بذكاء.. تحاول أن تبـدو طبيعية كأن شيئا لم يحدث. تكلمنى ببراءة الأيام الخوالى.

وصلتنى رسالتها الصامتة:

لا شىء تغير يا حبيبى. لنعد كما كنا وننسى.

قلت لها:

- أعرف وأفهم.

التفتت مستفهمة بحاجبين دهشين:

- ماذا؟

إنك تحاولين المستحيل. يا عزيزتـى.. لا فائـدة.. حدث الشرخ في داخلى. أنت تعرفيننـى وتحـاولين تجاهـل الأمر كله.

قالت بجدية:

- أحمد.. هذا ليس وقت الحوار، لكنى قـرأت عـن مناضلين وطنيين عرضوا صدورهم للموت لا السجن، ولـم ينكسروا، السجن ليس نهاية العـالم، وأنـت سـجين رأى، والواجب أن تكون قويا. أحمد من أجل ابنتنا.. ومن أجلـى..

وقبلنا جميعا.. من أجل نفسك تجاوز المحنة.. هيـه.. مـاذا تقول؟

قلت:

- أحاول.

قالت:

- أفهم حساسية الفنان لديك وأدرك أنك قوى.. قوى جدا. لا تهزك أزمة عارضة، أليس كذلك.

هززت رأسى مبتسما وممتنا.

لأنك لم تعرفي ما عرفت. لأنـك لـم تشـاهدى مـا شهدت.. تقولين ما لا يمكن فعله.

فجأة توقف الفالس الراقص. استرحت. أدارت ابنتـى أسطوانه اللحن الذى أحبه. نعم هو ما أريـد؟ السـيمفونية الخامسة لبيتهوفن. أشعر معها بقوة. بانطلاق. تشحذ إرادتى هذه القطعة الصغيرة. تمددت وابتسمت، هـززت رأسـى مؤكدا كلاما لم أقله. شكرا حبيبتى.

هذا اللحن المناسب في الزمن المناسب.

في الصباح رن جرس الباب.

احتفلت عصمت بعودتى فلم تذهب إلي الكلية.

قالت بتدلل:

لن أذهب إلا معك.

عرفت القادم من فرحة الترحيب وطول السـلامات، وصلنى صوتها مغردا:

عمو حسن.. أوه طنط فائزة. مش معقـول. تفضـلوا هنا.. بابا جاى حالا.

وتناهى صوتها من الخارج وهي قادمة إلي:

- بابا.. بابا.. عمو حسن.

وجدتنى في مواجهتها فاحتضنتنى وقبلتها.

- أنت مستعد للمقابلة.

قلت أحاول تهدئة فرحتهـا، فلـم أعـد أخشـى إلا المفاجآت غير المتوقعة:

- نعم حبيبتى.. وسنتناول جميعا الإفطار.

قالت :

- إذن أساعد أوندا في المطبخ.

قالت الزوجة:

- أقابل الضيوف أولا ثم تساعديننى.

* * *

جلسنا نشرب الشاى.. أوندا تذكرنى بأيـام زواجنـا الأولى. سعادة ورشاقة.. ذوق.. رقة.. وترحيـب. اتسـعت الجلسة بحضور نبيل خاف وزينب. كانـت فـائزة معجبـة بالنجمة التى تراها لأول مرة.. قالت معبـرة عـن غبطـة صادقة:

- أنت أجمل بكثير من الأفلام.

ابتسمت زينب وقالت محاولة الخروج مـن دائـرة الإطراء:

- يقولون عنى مغرورة فلا تزيـديني غـرورا يـا حضرة الدكتورة. ثم ردت التحية بأحسن منها.

-عرفت الآن لماذا لم يكن الدكتور حسن يهـتم بنـا نحن جيرانه.. كان مشغولا بحبك منذ التلمذة.

ابتسمت خجلة برغم خبرتها العملية المكتسـبة مـن العمل بالجامعة وقالت:

- لعله فقد الأمل في الجميلة الرقيقة.

انتهت أوندا من واجب الضـيافة فجـاءت تحتفـى بضيوفها في جلسة دافئة. فجـأة انفصـلت حلقـة نسـائية وانسحبت إلي الصالون مع فناجين القهوة، بينما التف أصدقاء

الزمن الجميل حول أنفسهم ودخلوا في تحليل هجائى عنيـف للواقع الاجتماعى والسياسى حتى علا صوت أحمـد الزاوى:

- هل كنا أعداءه؟

أعترف أني فرحت فرحا لم أعرفه طـوال حيـاتى. سعادة قلبت كل نجاحاتى الشخصية والفنية.. الأمل بعد يأس. القوة بعد ضعف. الحرية بعد ذلك. المحارب يستعيد أرضـه المقدسة. يطهرها من دنس العدو ونذالته. نعم فرحت وكدت أقبل السادات داخل شاشة التليفزيون وهو واقف بين القـادة رشيقا بزيه العسكرى النبيل يتابع تطور القتال.

ولكن. لماذا فرحتنا خاطفة وحزننـا طويـل؟ هـل يختلف الفريق أثناء السباق؟ يعزل قائده ويرميه بالكلمـات؟ يسرق النصر غير صانعه: تأكل الأمة نفسها؟ لماذا يعطـى العدو الفرصة؟

ويقول عنا : "أعداؤه". لأننا وقفنا خلف الشباب نردد هتافهم؟ أليس من حقهم الدفاع عن وجودهم؟ أهو وطنه وحده أم وطن الناس جميعا؟ منذ انتفاضة "الحرامية" صرنا جميعـا أعداءه.. لماذا، ونحن كنا معه؟

قال نبيل خاف:

- الشىء الوحيد الذى نجح فيـه الرجـل اخـتلاف الناس حوله.

قال أحمد الزاوى:

- لأن الكلام يعبر عن اتجاه، والفعل يمشـي فـي اتجاه آخر.

قال حسن:

- لولا غلطة سبتمبر لصار الرجل أسطورة.

قال أحمد الزاوى:

- أسطورة في الدهاء والمراوغة. وقف وحده ضـد إجماع الأمة ليوقع صلحا مع العدو.

قال نبيل خاف:

- أحمد.. هذه قضية رأى.. ماذا فعلـت الحـرب؟ أدرك الرجل أن الحرب لن تحسم شيئا لأن مصادر القوة بيد غيرنا.

دافع أحمد:

- لكم دينكم ولى دين.

قال نبيل خاف:

- ارحمنا وأرحم نفسك أيها الناصرى العريق وانظر كم تغير العالم ونحن واقفون.

- نتحد.

قال حسن هلال الحريص على عدم الخـوض فـي لجاج السياسة:

عمليا هذا غير ممكن. الواقع يكذب هذه الدعاوى. قل لى.. علام تتحد الأمم في هذا الزمان؟

نبيل خاف:

- على ألا تتحد.. لكن دعونا الآن من هذا الحـوار غير المجدى، فمازال صـاحبنا بحاجـة إلـي التـأقلم مـع المتغيرات.

قال أحمد الزاوى:

- بالمناسبة.. ما أخبار عمر السيد؟

رد نبيل خاف:

- مستغرق خاف حساباته يعـوض مـا فاتـه مـن ترقيات. هو الآن واحد من كبار مسئولى المؤسسة.

- لم يفكر في الاتصال.. منذ مدة غير قصـيرة لـم أسمع صوته.

قال نبيل:

- إنه يتحاشى الاندماج مع الأصدقاء. اتخـذ لنفسـه خطا منذ أحس بتوترات الحياة والمجتمع.. أن يكون رجـلا بيتيا.. من العمل إلي البيت. وفهمنا ذلك فلم نلح.

حسن هلال:

- هو خائف. مما يجرى في البلد.

نبيل خاف:

- خائف أو منعزل.. المستفيد الوحيد من تحوله هو "عواطف".. بعد أن صار داجنا مدجناً.

قال أحمد الزاوى:

- الإنسان غريب وغير مفهوم.

قال حسن وهو يتأهب للخروج:

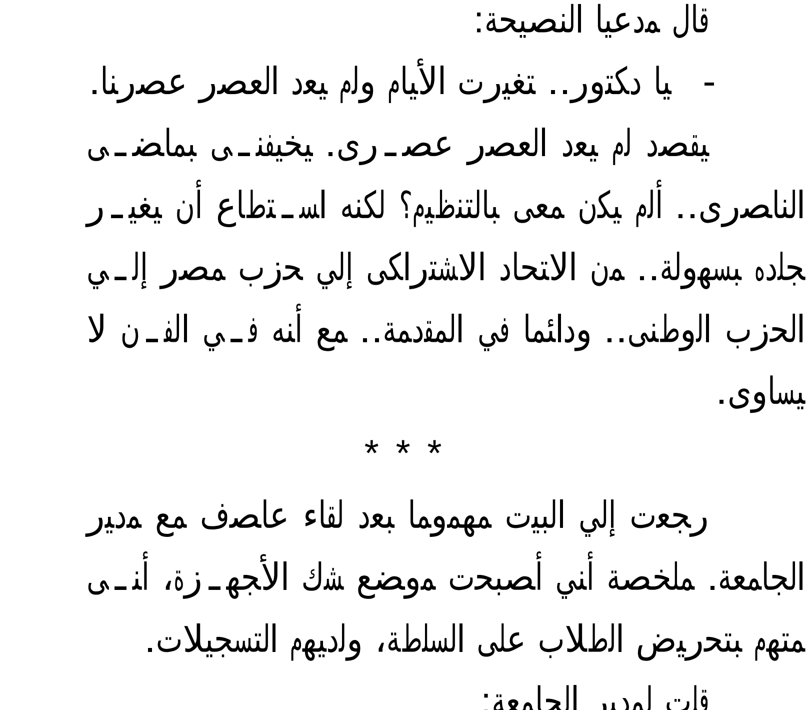
- مفهوم أو غامض.. لم يعد يهم.

نهض نبيل خاف وتعانق الأصـدقاء عنـاق أخـوة صادقة وهم يكررون التهنئة بسلامة الصديق العزيز.

انفتحت الدائرة الداخلية المغلقـة ونهضـت زينـب والدكتورة فائزة، وأوندا وتبادلن القبلات.

* * *

عند وصولى إلي الكلية تظاهرت بالمرح وأنا أنـزل من السيارة التى تركت لابنتى قيادتها مبالغة فـي إسـعادها. استقبلنى الجميع بالقبلات والابتسامات. هال الطـلاب فـي المحاضرة وكبروا "ا أكبر. ا أكبر، و الحمد" أدهشـنى الطلاب والأساتذة.. ماذا جرى؟ لم تخف قبلاتهم وتـرحيبهم بوصولى تغيرا لمسته. تشاغل بالمحاضرات. هـروب مـن المواجهة. لون من الخوف أو الترقب يصـبغهم. يتحركـون كآلة بشرية. لا اجتماعات. خروج ودخول. ما هـذه الكليـة التى أعرفها. ما هذه الجامعة التي عشت لهـا وبهـا. ومـا هؤلاء الزملاء زملائى. سألت عن البعض.. قيل سـافروا.. إعارات والبعض يستعد للسفر. والجالسـون يبحثـون عـن الانتماء. تأكد ظنى فأدركت أنهم يتحاشون الاجتماع بى، في العلن على الأقل. أصبحت في قائمـة المشـبوهين. معتقـل سابق. لى اسم بسجل السجون. حاولت التماسك. مـن أجـل ابنتى، ومن أجل تلاميذى الـذين يصـرون علـى تحويـل المحاضرة إلي ندوة سياسية. ولم أجد مفرا مـن التجـاوب معهم. استدعانى العميد ونبهنى إلي عدم التساهل مع الطلاب في أحاديث سياسية.



قال إن حركتى مرصودة، ودعانى للاحتراس.

قلت له إني دائما صاحب رأى حر.

قال مدعيا النصيحة:

- يا دكتور.. تغيرت الأيام ولم يعد العصر عصرنا.

يقصد لم يعد العصر عصرى. يخيفنى بماضى الناصرى.. ألم يكن معى بالتنظيم؟ لكنه استطاع أن يغير جلده بسهولة.. من الاتحاد الاشتراكى إلي حزب مصر إلي الحزب الوطنى.. ودائما في المقدمة.. مع أنه في الفن لا يساوى.

* * *

رجعت إلي البيت مهموما بعد لقاء عاصف مع مدير الجامعة. ملخصة أني أصبحت موضع شك الأجهزة، أننى متهم بتحريض الطلاب على السلطة، ولديهم التسجيلات.

قلت لمدير الجامعة:

- هل عدنا إلي عصر التسجيلات؟

قال كمن يتشفى بي:

- كان ذلك عصركم. نحن نحيا عصر الديموقراطية الذى لم تعرفوه في ايامكم. فلا تجعلونا نندم على التسـامح، فاديموقراطيتنا انياب.

قلت له راغبا في التخلص من لقائه الكريه:

- وما المطلوب منى؟ إن كان المطلـوب ألا أدخـل الجامعة، فلن أدخل، أحبس نفسى في بيتى.

ابتسم المدير ابتسامة المنتصر وقال بخيلاء وصوت غليظ يعكس نجاحه:

- لا يا دكتور... ليس إلي هذا الحد.

ثم أشار بيده وهو يقول:

- يعنى.. تؤدى المحاضرة بغير توابل.. المحاضرة فقط.

قلت:

- هذا ما نفعله.

قال:

- أتعشم ألا تتكلم ثانية في هذا الموضوع.

خرجت وصوته يشيعنى إلى خارج غرفته بعـد أن قطع معي خطوات إلي الباب.

- مع السلامة يا دكتور أحمد. شرفت يا دكتور.

دبلوماسية. كياسة. لئلا يشعر الموظفـون بمـا دار بيننا. يبدو لهم وكأن المقابلة روتينية، ولكنى واثق مثلما هـو واثق مثلما هو واثق، أن أخبار المقابلة بتفصيلاتها.. انتقلـت إلي الجميع قبل خروجى، وإلا.. ما فائدة الأجهزة!

* * *

لا أعرف من حاك التقولات عن تحولى.. منذ اتصل بى عزب بخيت عارضا علـى الاشـتراك فـي مشـروعة الصحفى واعتذرت. تناثرت الأقاويل عنى. في الحقيقـة لـم أعتذر. طلبت أن يمهلنى. بعد نقاش طويل ثبت لى أنـى لا أحبذ العمل معه. قلبت العرض على أوجهه المحتملة. أعرف عزب جيدا. أعرف كيف يفرض عليك قناعاته. يحاصـرك. يحتويك. يحملك مسئولية فشلة إذا فشل. ولم يرضنى حماسه. شىء ما أقلقنى.

* * *

في أيام المعتقل الأخيرة اقتربت كثيرا مـن عـزب، وابتعدت كثيرا عنه. كلانا يدافع عن رأى، ولكل منا رؤيـة. أدركت يقينا أننا مختلفان. المحرك القوى لديه يدفعـه نحـو

الحزب.. الدفاع عن الحزب هو أولوية عزب بخيت. كل توجهه إلي فكرة الأممية. وحدة القوى التقدمية. الدرس المستفاد من تجربة التنازل للناصرية. لا يرى حلا لأى مشكلة إلا العمل الحزبى التقدمى. لم تكن قضية الوطن تعنى الكثير له. كانت مهمشة لصالح الحزب، وكان حلها تابعا للحل الجذرى بعودة التلاحم الجرانيتى للحركة التقدمية العالمية. قلت في نفسى: وأين الوطن من هذه الدعوة؟ ولم أجد جوابا إلا مثلنا الشهير "موت يا حمار.." عندها أحسست بالاختلاف. إننا لا يمكن أن نلتقي. هو يقول "الحزب" وأنا أقول "الوطن". لكنه لا ييأس. لا يكل. تتجلى عبقريته الفذة في هذه المواقف التصادمية. مقاتل عنيد. شرس. بسرعة التفت الكثرة حوله، وتخوفت من نجاحه على الوطن. لكنى أعترف.. لا أملك قدراته. مهاراته الحوارية. إلحاحه على الفكرة. جديته الصارمة.

قلت في نفسى:

الويل لنا من نجاحه. وإذا كان جمال أضاعنا في سبيل فكرة هلامية.. سيضيعنا عزب في سبيل فكرة أكثر هلامية اسمها "الحزب التقدمى". وتظل أرضنا رهينة.

ويكرس الاحتلال وجوده. ويكتسب بمرور الزمن شـرعية. وينسى العالم ما كان لتأكيد ما هو كائن.

ترددت.. ثم ناقشت.. ثم شككت فـي الفكـرة.. ثـم طلبت وقتا. ولم يعجبه الموقف. فوجئت بإشاعة. ثم حملـة. انضم أحمد الزاوى إلي الجماعة. أطلق لحيته. خلع ملابسـه أرتدى الجلباب الأبيض. عزل نفسه في بيته يقـرأ الأوراد. ترك مشكلات الدنيا وتصالح مع آخرته. هكذا انتهى الثورى.

في البداية سخرت من كل هذا حتى طوقت الإشاعة الحقيقة. ولم يهدأ. اتصل بي وسأل عن حقيقة مـا يتـردد.. كيف تقف صامتا؟ السلبية ضد مصلحتك. أنت لا تمثل ذاتك. أنت رمز مرحلة تاريخية. اخرج. ناضل.. معركتنا واحدة.

هكذا عزب. يريد أن يحارب بى. أكون جنـديا فـي جيشه. قلت لعزب: قرأت جريدتك ولست أصلح لهـا. أنـا بطبيعتى لست من رجالك ولا اقدر.

قال:

- هل تؤكد ما يشاع عنك؟

قلت:

- عزب! أعرف أنك لن تكف عن المحاولة. لكننـا مختلفان. معركتنا ليست واحدة.

قال بإصراره:

- نتحد.. مرحليا على الأقل.

قلت منهيا الحوار:

- الوطن لا يحتمل ترف المناورة.

قال مستفزا:

- وهل يحتمل سلبية التائهين في الملكوت؟

قلت:

- لا ترهبنى بسخريتك. لن تستدرجني باستفزازك.

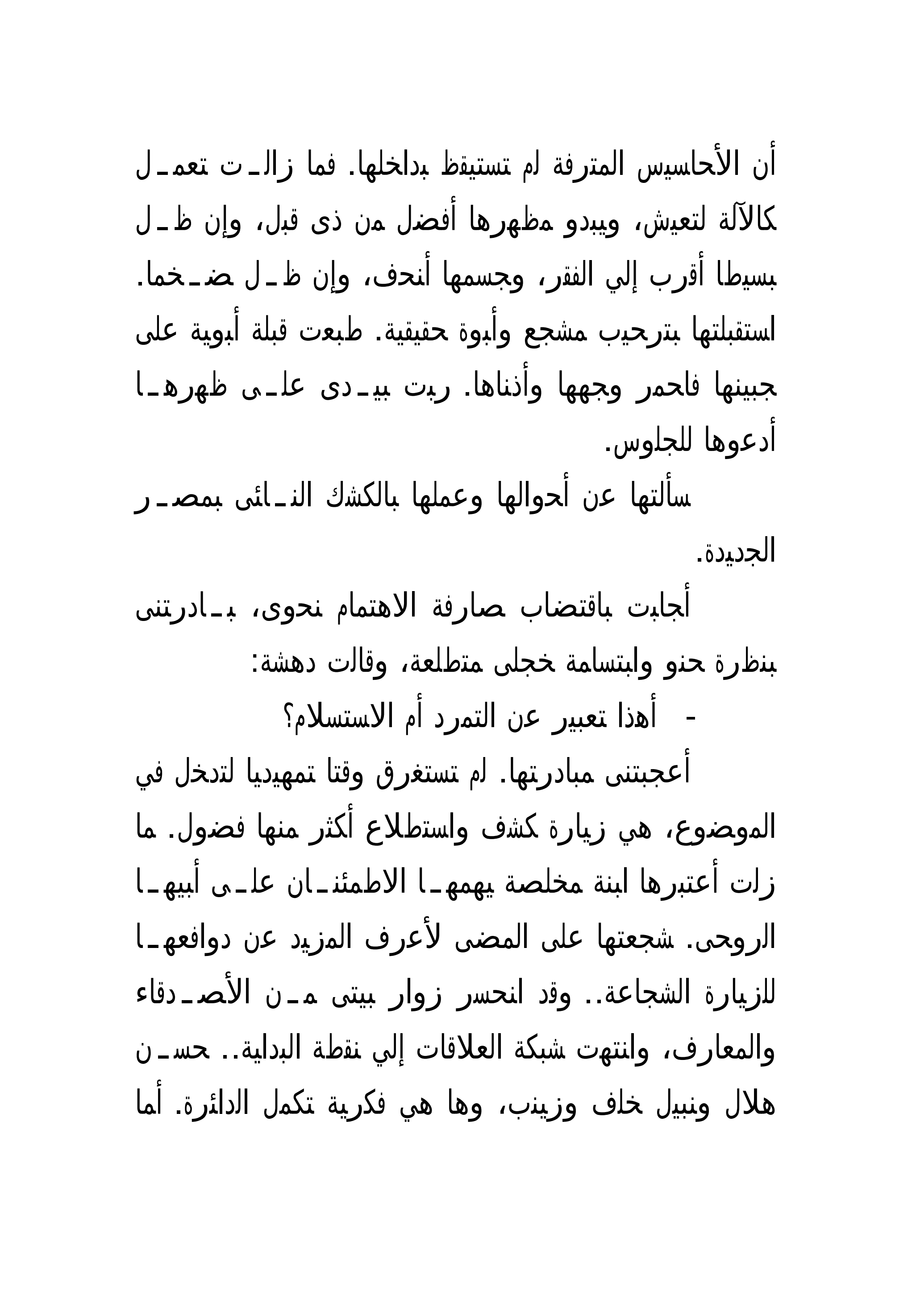
قال:

- صرت مسالما أكثر من اللازم. إنها كارثة.

دائما يجد الكلمات الضخمة. لكن هذا لم يعد يثيرنى.

* * *

رحبت بزيارة فكرية. مازالـت لا تعـرف الكـذب الاجتماعى والنفاق. كست الفرحة وجهها، ابتسـامة إعـزاز طيبة. أقبلت على بشوق الابن المحب. سمعت عن توفيقهـا في عملها واستقرارها، وقلقت عليها من وحدتها. لكن يبـدو



أن الأحاسيس المترفة لم تستيقظ بداخلها. فما زالـت تعمـل كالآلة لتعيش، ويبدو مظهرها أفضل من ذى قبل، وإن ظـل بسيطا أقرب إلي الفقر، وجسمها أنحف، وإن ظـل ضـخما. استقبلتها بترحيب مشجع وأبوة حقيقية. طبعت قبلة أبوية على جبينها فاحمر وجهها وأذناها. ربت بيـدى علـى ظهرهـا أدعوها للجلوس.

سألتها عن أحوالها وعملها بالكشك النـائى بمصـر الجديدة.

أجابت باقتضاب صارفة الاهتمام نحوى، بـادرتنى بنظرة حنو وابتسامة خجلى متطلعة، وقالت دهشة:

- أهذا تعبير عن التمرد أم الاستسلام؟

أعجبتنى مبادرتها. لم تستغرق وقتا تمهيديا لتدخل في الموضوع، هي زيارة كشف واستطلاع أكثر منها فضول. ما زلت أعتبرها ابنة مخلصة يهمهـا الاطمئنـان علـى أبيهـا الروحى. شجعتها على المضى لأعرف المزيد عن دوافعهـا للزيارة الشجاعة.. وقد انحسر زوار بيتى مـن الأصـدقاء والمعارف، وانتهت شبكة العلاقات إلي نقطة البداية.. حسـن هلال ونبيل خاف وزينب، وها هي فكرية تكمل الدائرة. أما

أصدقاء النجاح والنجومية فاتجهوا إلـي ذرة حيـة أخـرى يتجمعون حولها ويصنعون من حركتها كرة جديدة تـدور.. تتضخم ويتضخمون معها كلما زاد دورانها.

قلت أداعبها:

- يتساوى التمرد والاستسلام.

رفعت حاجبيها مستفهمة.. لم تفهم قصـدى فبـدأت أشرح لها ببساطة ما أرمى إليه. وعندما فهمت حـاورتنى. صارت أكثر جرأة. شجعتها لأكسر شرنقة الـتحفظ معـى. وطال الحوار وتشعبت دروبه. تكلمنـا عـن كـل شـىء.. السياسة.. الناس. تعمدت ألا أذكر أسم عزب بخيت إلا فـي لحظة محددة إن احتجت مزيدا مـن الضـوء عـن دافعهـا المحرك. ما زالت تخاطبنى بأدب مدرسى. لـيس باسـتخدام لقب أستاذ كلما توجهت إلي بالخطاب، وإنما بتصاغر تلقائى. زينب لا تقول لى أستاذ.. مع كل جملة، لكنى استشعر معها روح المحبة والاعتزاز والصداقة الحميمة. وها هي فكريـة. تضيف إلي الوفاء والعرفان التصاغر. أردت أن أخرجها من التأدب الذى لا معنى له، وقد وقفت على رجليها، واستقامت حياتها، ولم يعد لهذا الأسلوب معنى في نفسى.

فاجأتها بسؤال لم تتوقعه:

- وكيف نخرج من الأزمة؟

بهتت وحملقت بوجه جامد ثم قالت كالمعاتبة:

تسألنى أنا يا أستاذ كيف نخرج من الأزمة؟

كادت تبكى وهي تستكثر عليها أن تكون مسئولة وأنا سائلها.

قلت:

نعم. أسألك. أعجبنى كلامك، فلم تدهشين من سؤالى؟

قالت:

- لأنى أعتذرت أن أتعلم منك.

قلت لها مهدئا توترها المفاجىء:

- حتى التلميذ لا يظل تلميذا إلي الأبد.

قالت وابتسامة طمأنينة تكسو وجهها بشرا:

- لكننى معك تلميذة دائما.

قلت:

- إذن أسمعى ما اقول ولا تحزنى.

تنهبت ملامحها وهي تنصت لكلامى.

- ألم ترى هذه اللحية على في الماضى؟

قلت متذكرة:

- بلى.

ثم ابتسمت:

أيام "الخنفسة" وأنت طالب بالكلية، لكنك وقتها أطلقت كل شعرك لا ذقنك وحدها.

قلت:

- كنت في تلك الأيام أبحث عن ذاتـى الفنيـة فأهملـت مظهرى، وهو ما يلفت الناس إلي الشخص.

قالت:

- والآن أتبحث عن ذاتك الفنية مرة أخرى؟

قلت:

- تقريبا. ليست الذات الفنية ما أبحث عنه، بل ذاتنا الوطنية. إنها مراجعة للمرحلة التى مرت. أين الصواب وأين الخطأ؟ كانت أحلامنا عظيمة.. فكيف انتهينا إلي هذا التقزيم والمهانة؟

كيف نخرج من المأزق الذى وقعنا فيه؟ راهنا علـى بناء المجتمع الحديث.. فلماذا سقطنا؟ أحقا نحن مسـتهدفون؟

ممن؟ ولماذا؟ أم نداري فشلنا وهزائمنا بغطاء كاذب من جديد؟ أزمتنا هي.. كيف ندخل قلب العصر الحديث؟ كيف نصنع الدولة الحديثة؟ كيف نصير كغيرنا من دول العالم المتقدمة في الغرب، والأخرى التي ظهرت بقوة في الشرق؟

مصر يا عزيزتي معنى كبير، لكنها تائهه بحيرة أبنائها.

تأثرت مشاعرها من كلامي. التمعت عيناها بدمعة لم تنسكب.

قالت متشجعة:

- ما علاقة كلامك بلحيتك؟

قلت أصرفها إلي الأهم:

- قولي إنها تعبير عن التمرد. انشغال عن مهم بالأهم.

قالت:

- من يطلقونها هذه الأيام ليسوا متمردين. إنهم ملتزمون.

قلت:

- أنا معك، فظواهر الأشياء تداخلت.

داعبتها:

- لا تنسى أن ماركس كان ملتحيا، ولينين وداروين أيضا.

أكملت:

- والأنبا وحاخامات اليهود و.. أعرف هذا يا أستاذ. لكن اللحية في أيامنا الحالية.. علامة الأصولية، مع الثـوب الأبيض القصير...

ابتسمت وقلت:

- معك حق. وكما قلـت لـك.. تـداخلت ظـواهر الأشياء، ولابد من الاعتدال. أنا معك يا عزيزتى. فاطمئنى. لم أخلع ملابسي وأرتدي الجلباب القصير.

قالت معتذرة:

- آسفة يا أستاذ أحمد.. أسأت فهمك.. لكن ما سمعته عنك أزعجنى. خاصة ما قاله الأستاذ عزب عـن تحولـك ودروشتك.

تأكد ظنى عن مصدر الإشاعة. تجـاوزت المسـألة وقلت:

- اسمعى ما أقول جيدا.. عزب بخيت.. يريدنى معه بجريدته. وبوضوح أكثر يريد أن يستعملنى ليوهم بتحـالف جديد بيننا يكون هذه المرة محركه. عزب بخيت لا تعنيه إلا قضية واحدو هي "الحزب". أما قضيتى فهي "الـوطن"، قـد يكون طموحه أكبر وطموحى أقل. لكن أتحرك فـي حـدود قدرتى، وفي سبيل هدف واضح ممكن. الوطن شىء مـادى ومعنوى مفهوم أما الأممية فمعنى هلامى لا يمكن الإمسـاك به، ثم إن الزمن تجاوزه. نحن في سباق مع العصر. التقـدم العلمى لن يرحم الأمم المتخلفة.

- ألهذا يطلق عليك الإشاعات؟ يلصق بك الاتهامات كاذبة؟ يتحدث عن دروشتك وبعدك عن العصر وتحليقك في الملكوت؟

قلت مؤمنا على ما تقول:

- وهذه خطورته. يستبيح كل شىء يحقق له أهدافه. كل الوسائل مشروعة لديه ما دام هدفه مشروعا.

- هذا يعنى أنه يسير في اتجاه خاطىء.

- بل يعنى أنه يجتهد فيما يراه صائبا.

- لكنكما صديقان.. هكذا كنتما.. وهو ما بـدا لـى. أنت الذى قدمتنى إليه يا أستاذ.

- اطمئنى. نحن ما زلنا صديقين. والاخـتلاف فـي الرأى والرؤية حق لكلينا.

- واتهاماته لك؟

ابتسمت مبسطا لها الأمر:

- هذا تكنيك مهنى. أداة ضغط ليجذبنى إلي دائرته.

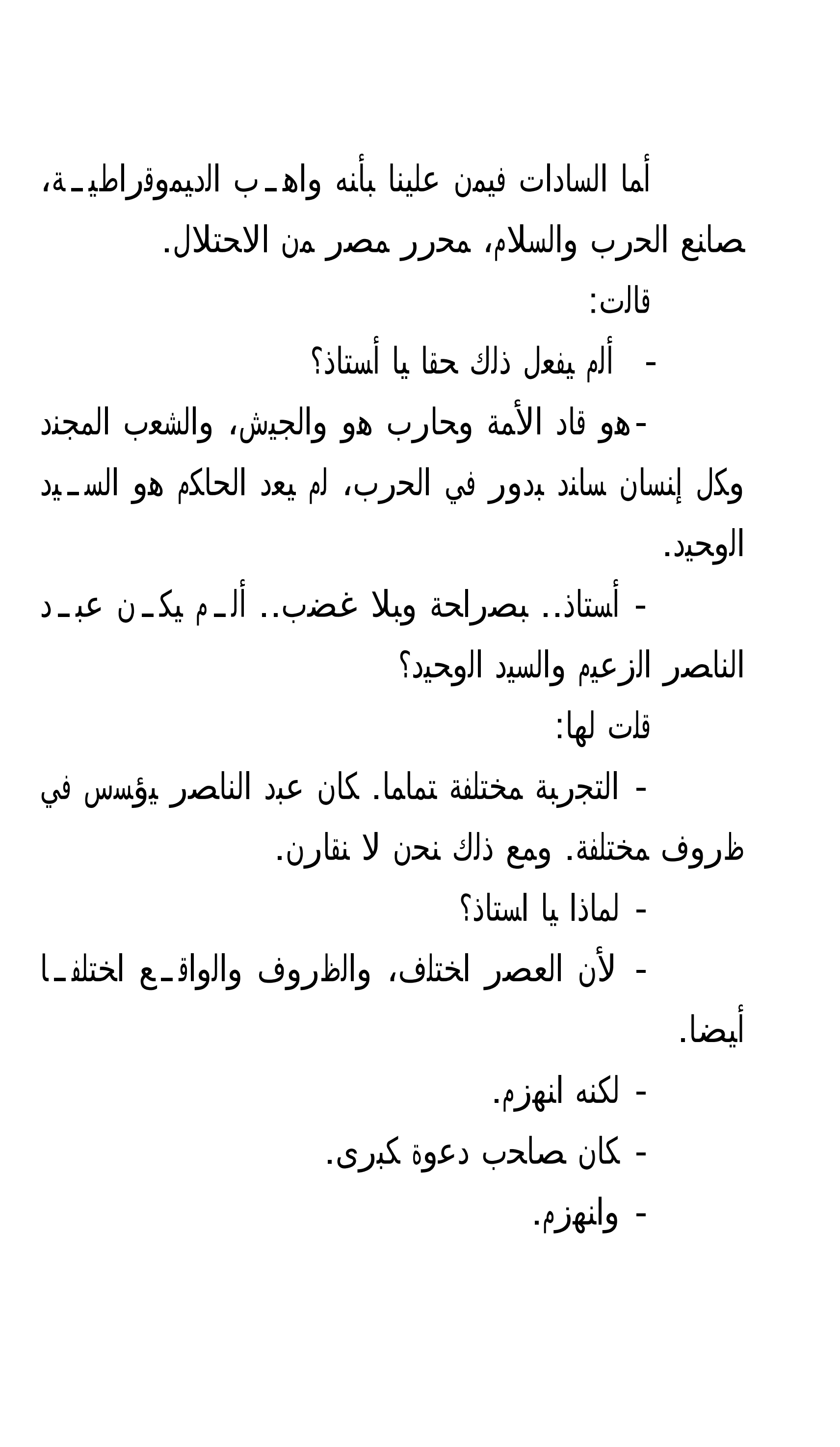
قالت كأنها تفجر فكرة أرقتها طويلا:

- أستاذ أحمد.. بصراحة.. لا أرى اختلافا جوهريا بينك وبين اتجاه الحكم.

تتكلم عن الوطن ويتكلم عن الوطن. تريـد الحريـة ويريد الحرية. تريد المجتمع الحديث القوى ويريد المجتمـع الحديث. فلم لا يتحد الاتجاهان ونستريح؟

قلت لها:

- لأننا نريد حرية حقيقية.. وديموقراطية حقيقيـة.. ومجتمعاً حديثا حقيقيا.. أى مجتمعا منتجا ناجحا.



أما السادات فيمن علينا بأنه واهـب الديموقراطيـة، صانع الحرب والسلام، محرر مصر من الاحتلال.

قالت:

- ألم يفعل ذلك حقا يا أستاذ؟

-هو قاد الأمة وحارب هو والجيش، والشعب المجند وكل إنسان ساند بدور في الحرب، لم يعد الحاكم هو السـيد الوحيد.

- أستاذ.. بصراحة وبلا غضب.. ألـم يكـن عبـد الناصر الزعيم والسيد الوحيد؟

قلت لها:

- التجربة مختلفة تماما. كان عبد الناصر يؤسس في ظروف مختلفة. ومع ذلك نحن لا نقارن.

- لماذا يا استاذ؟

- لأن العصر اختلف، والظروف والواقـع اختلفـا أيضا.

- لكنه انهزم.

- كان صاحب دعوة كبرى.

- وانهزم.

- نعم انتهى بالهزيمة. وضاعت حسناته في هزائمه. فهل نكرر التجربة والخطأ؟

- بل نستفيد.

- وهذا ما أسعى إليه. لا بـالرجوع إلـي عصـر ناصر، ولا بالموافقة على عصر السادات.

وعلينا أن نختار الطريق الذى لا يـرتبط بشـخص. الحرية اختيار. الديموقراطية نظام. المجتمع الحديث.. هدف.

- وإذا جاءت الديموقراطية بذوى اللحى؟

-ليكن. سنرى ماذا يفعلون للوطن. وبالديموقراطيـة أيضا نغير إلي الأفضل.

- هذا صعب يا أستاذ.. فهم كثرة.

- بل هم أزمة. نتاج أزمة وحصادها. جيل عاطـل عن العمل. فقير. يشعر بضياع مستقبله، وضباب حاضـره. يجد من يزرع في رأسه فكرة ويسـتعمله ليحقـق هدفـه.. يعوض عجز الدنيا ويأسه منها لفوز الآخرة.

- وهل هذا خطأ؟ ألسنا جميعا مسلمين؟

- هكذا قلتيها. نحن جميعا مسلمون. ولسنا في حاجة إلي إعلان استفزازى.

المقلق في هذه الظاهرة أنها تعطلنـا. تسـحبنا إلـي الوراء وغيرنا يتقدمون، حينما نفيق سـنجد المسـافة أكثـر اتساعا بيننا.. أحيانا أشعر أنها مؤامرة، وأحيامنا أشعر أنـه غباء. ما يحدث، من يدفع، ومن يحرك، ويبدو أن أن قـدرنا أن نعبر من مستنقع غلي آخر حتى نفهم.

* * *

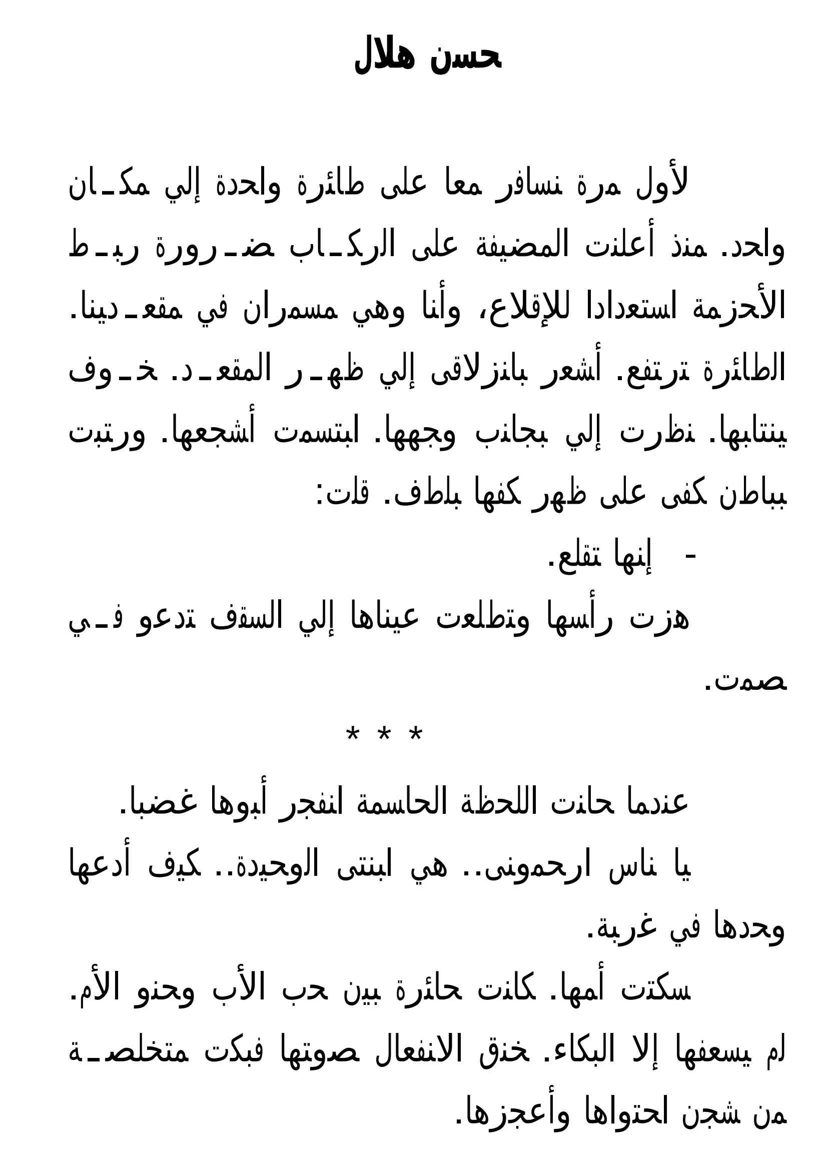
أدركت أـني نجحت، وأعدت لها ثقتها بي، وفهمها لنفسها وللحياة من حولها.

استأذنت على وعد بلقاء آخر أسمح به.

قلت لها:

- أنت دائما مرحب بك.. بغير إذن.

* * *



حسن هلال

لأول مرة نسافر معا على طائرة واحدة إلي مكـان واحد. منذ أعلنت المضيفة على الركـاب ضـرورة ربـط الأحزمة استعدادا للإقلاع، وأنا وهي مسمران في مقعـدينا. الطائرة ترتفع. أشعر بانزلاقى إلي ظهـر المقعـد. خـوف ينتابها. نظرت إلي بجانب وجهها. ابتسمت أشجعها. وربتت بباطن كفى على ظهر كفها بلطف. قلت:

- إنها تقلع.

هزت رأسها وتطلعت عيناها إلي السقف تدعو فـي صمت.

* * *

عندما حانت اللحظة الحاسمة انفجر أبوها غضبا.

يا ناس ارحمونى.. هي ابنتى الوحيدة.. كيف أدعها وحدها في غربة.

سكتت أمها. كانت حائرة بين حب الأب وحنو الأم. لم يسعفها إلا البكاء. خنق الانفعال صوتها فبكت متخلصـة من شجن احتواها وأعجزها.

- افعلوا ما تريدون. اعتبرونى مـت واسـتريحوا منى.

لم يخفف حدة الأزمة إلا تفتح وفهم أخيها سعد. قـال ملاطفا عاطفا:

- وا   يا أبي.. لو لم أكن واثقا من "حسن"، ما قبلت لأختى هذا الحل، ولكن ماذا تفعل هي ومـاذا يفعـل؟ هـذا قدرهما. بعثته إلي انجلتـرا وبعثتهـا إلـي بـاريس. همـا متفاهمان.. وأنا أعرفه مثلما أعرف نفسى. وبعد عودتهما يتم الزواج. يسافران مخطوبين ويتزوجان بعد عودتهما.

- هل تضمن لي أن أعيش لأرى ابنتي بعد عودتها؟

قالها الأب حزينا، فرد الأبن:

- لا إله إلا ا   يا بابا. من يضمن أجله. لكننا نعيش على الأمل.

سكت الأب فأجهشت فائزة:

- لن أسافر ما دمت غاضبا يا ابي.

نظر إليها مستسلما وقال وصوته يتهدج:

- ليس غضبا يا حبيبتى. هو حب وخوف.

قالت:

- لن أترك بيتى إلا وأنت راض.
- أنا راض.. لكننى رجل ضعيف يحب ابنته.

قالت الأم:

- لا تعذبها بكلامك. إما أن تريحها وتوافق، أو تريحنا وترفض.

قال بحنان صادق:

- لا أستطيع الرفض، ولا أقوى على الموافقة.

قال سعد حاسما:

- إذن لا ترفض يا أبي ولا تعق مستقبلها. هي لن تكون وحيدة. وبإمكانك زيارتها وقتما تشاء، فأمورنا في تحسن كبير والحمد .

قالت الأم موجهة كلامها لى:

- حسن.. فائزة أمانة في عنقك. طمئنى عليها.

قلت:

- اطمئنى يا ماما.. الاتصالات هناك أسهل بكثير، وسأراسلكم بانتظام.

قالت مستسلمة:

- طيب.

قال الأب:

- هناك كن أباها وأخاها قبل أن تكون خطيبها.

قلت بإخلاص وصدق:

- هي في عينى.

قال سعد:

- ا معكما. عودا بسرعة، وانجحا.

* * *

قلت لفائزة وأنا أودعها عند السفر:

- اليوم أنت وغدا أنا.. والعهد بيننا أن نعمل وننجح. سأتصل بك فور استقرارى بالكلية وسـأعرفك أخبـارى. لا تخفى عنى شيئا. انجحى من أجل والديك.. انجحى لنجتمـع معا تحت سقف واحد.

قالت:

- لا تخجلنى بهذا الكلام.

* * *

عندما وجدتها تنتظر على محطة القطار، بعد غياب ستة اشهر. نسيت نفسى واحتضنتها. احمر وجههـا وقالـت هامسة:

- حسن؟ ماذا فعلت؟ أنسيت أننا مخطوبان فقط؟

قلت معتذرا:

- لم أقصد.. اندفعت بكل الشوق ونسـيت. أخـذنى الجو الغربى. هل ضايقتك؟

قالت بصدق:

- بل أسعدتنى. لكننا هنا وحيدان. ولا تنس عهـدك لأبي وأمي وخاصة لسعد. هو يحبك ويثق بك.

قلت:

- وأنا جدير بثقته فاطمئنى.

قالت:

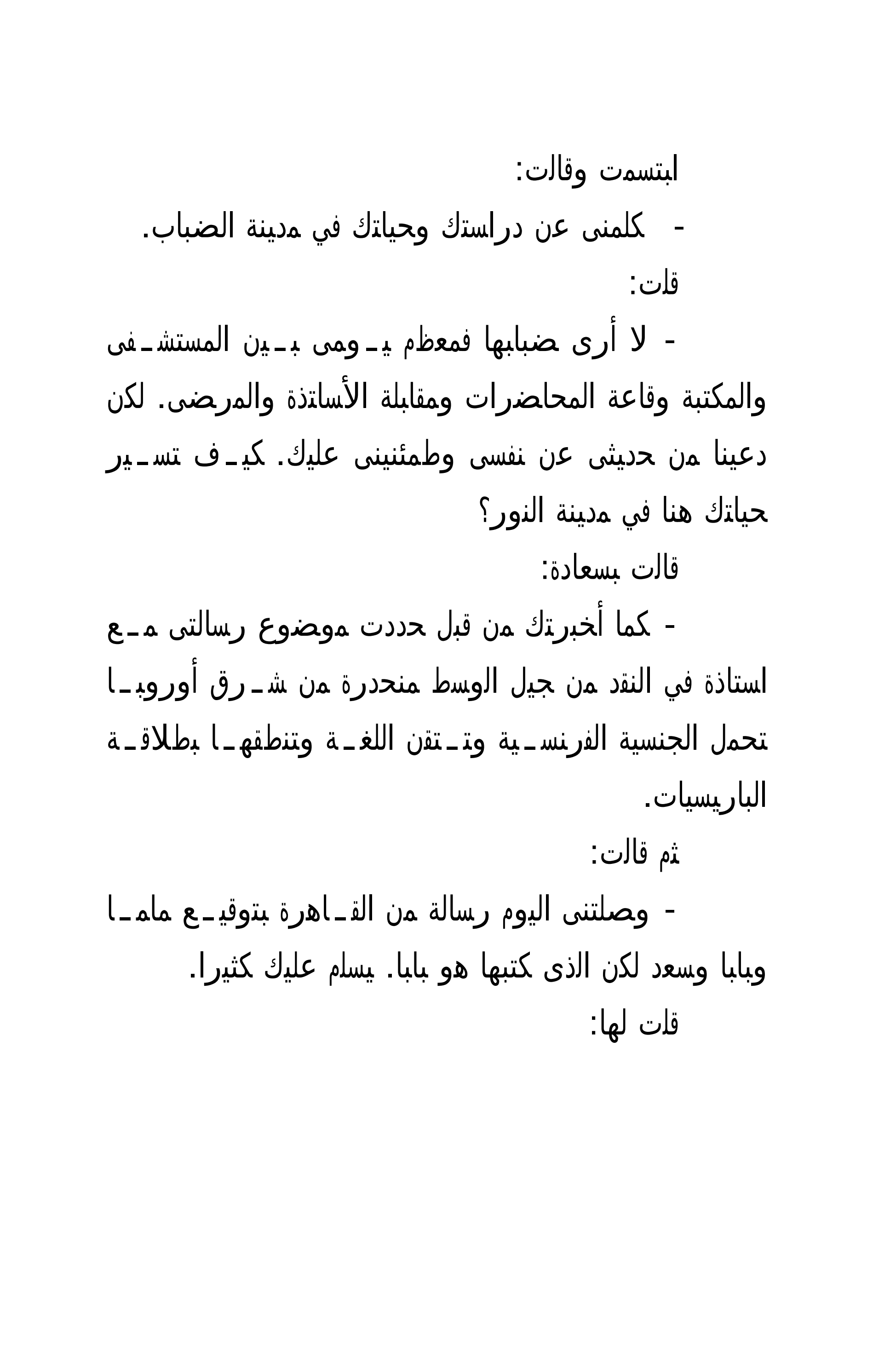
- أعرف أن هذا يعذبك ولكن، لأننـا وحيـدان، ولا رقيب علينا سوانا، يجب أن ننضبط.

قلت ملاطفا:

- لكن هذا صعب.

لامتنى نظرتها فتراجعت:

- معك حق. سأحاول أن أنضبط.



ابتسمت وقالت:

- كلمنى عن دراستك وحياتك في مدينة الضباب.

قلت:

- لا أرى ضبابها فمعظم يـومى بـين المستشـفى والمكتبة وقاعة المحاضرات ومقابلة الأساتذة والمرضى. لكن دعينا من حديثى عن نفسى وطمئنينى عليك. كيـف تسـير حياتك هنا في مدينة النور؟

قالت بسعادة:

- كما أخبرتك من قبل حددت موضوع رسالتى مـع استاذة في النقد من جيل الوسط منحدرة من شـرق أوروبـا تحمل الجنسية الفرنسـية وتـتقن اللغـة وتنطقهـا بطلاقـة الباريسيات.

ثم قالت:

- وصلتنى اليوم رسالة من القـاهرة بتوقيـع مامـا وبابا وسعد لكن الذى كتبها هو بابا. يسلم عليك كثيرا.

قلت لها:

- وهذه الرسالة من سعد، فيها فقرات بخـط ماما وبابا أيضا. يبدو أنهم بدأوا يألفون غربتنا المؤقتة. الرسـالة هذه المرة أهدأ.

أخذت الرسالة وانفردت بقراءتها حتى وصل المترو فقالت:

- سنكون معا معظم اليوم. وكمـا أخبرتـك سـتنام بحجرة طالب جزائرى يقضـى إجـازة بوطنـه وتؤجرهـا صديقته الفرنسية بأجر معقول.

هززت رأسى موافقا وفجأة قالت لى:

- حسن. هل أنت مريض؟ وجهك شاحب.

قلت:

- لم أنتبه لهذا التغيير.. كل شىء عادى.. لكن الجهد كبير.. أنا مستمتع بالعمل والدراسة والبحث. انتبهت إليهـا.. ازدادت نحافة وشحب وجهها قليلا.. قلت لها:

- أليس لديكم طعام في باريس؟

ابتسمت وقالت:

- لدينا.. ولكن الطعام الفاخر مكلف.

قالت: أخيراً

قلت: أخيراً..

قلت مداعبا:

- هذه محنة مبعوث من العالم الثالث.

قالت:

- ليس كل العالم الثالث. فقراء العالم فقـط. لكـن أليست باريس جميلة؟

قلت:

- أؤجل الحكم حتى أرى اللوفر.

قالت:

- يوم الأحد يفتح اللوفر مجانا فانتظر إلي الغد، أما اليوم فلنا جولة سياحية ببرج إيفل.

* * *

أعلنت المضيفة ضرورة ربط الأحزمـة اسـتعدادا لهبوط الطائرة. تحسست الحزام فوجدتاه كما هو مربوط منذ أقلعت.

قلت: أخيرا..

قلت: أخيرا.

* * *

فائزة حلمى

تنهبت إلي إعلان المضيفة ربط الأحزمة اسـتعدادا للهبوط. ها نحن نهبط أرضا عربية بجـوازات سـفر وإذن دخول يسمونه " التأشيرة"، كأى أجنبى يدخل بلادا غريبـة. هكذا انتهت الدعوة إلي العروبة بمزيد من التشرذم والعزلة، كما انتهت كل تضحياتنا الطبقية والوطنية إلي بدد ضـائع لا معنى له، ولا قيمة، ولا يفكر فيه أى ممن هجرنـا أوطاننـا وجئنا إليهم. السادات كعبد الناصـر ككـل زعـيم يوظـف ديماجوجية الجماهير ليعلو عليها، سلب الأول أملاكنا باسـم الجماهير والعدالة، وأمم مصانعنا ليرفع الطبقة العاملة، فهل خدم الشعب تأميم المصانع؟

المأساة أننا خسرنا ولم يكسب أحد، ولا أعرف فـي أى بالوعة تضيع موارد أمة، ويخرج خيرة أبنائها بحثا عـن رزق أوسع، كأى غريب، في بلاد تـتكلم العربيـة، وتـدين بالإسلام، وتولى وجهها إلي الغرب.

هل نلومهم؟ علام؟ ماذا لدينا نقدمه؟ الباقى الوحيد هو ذواتنا نتطوع بها على مذابح نهضتهم لنكسب دخلا أكبر.

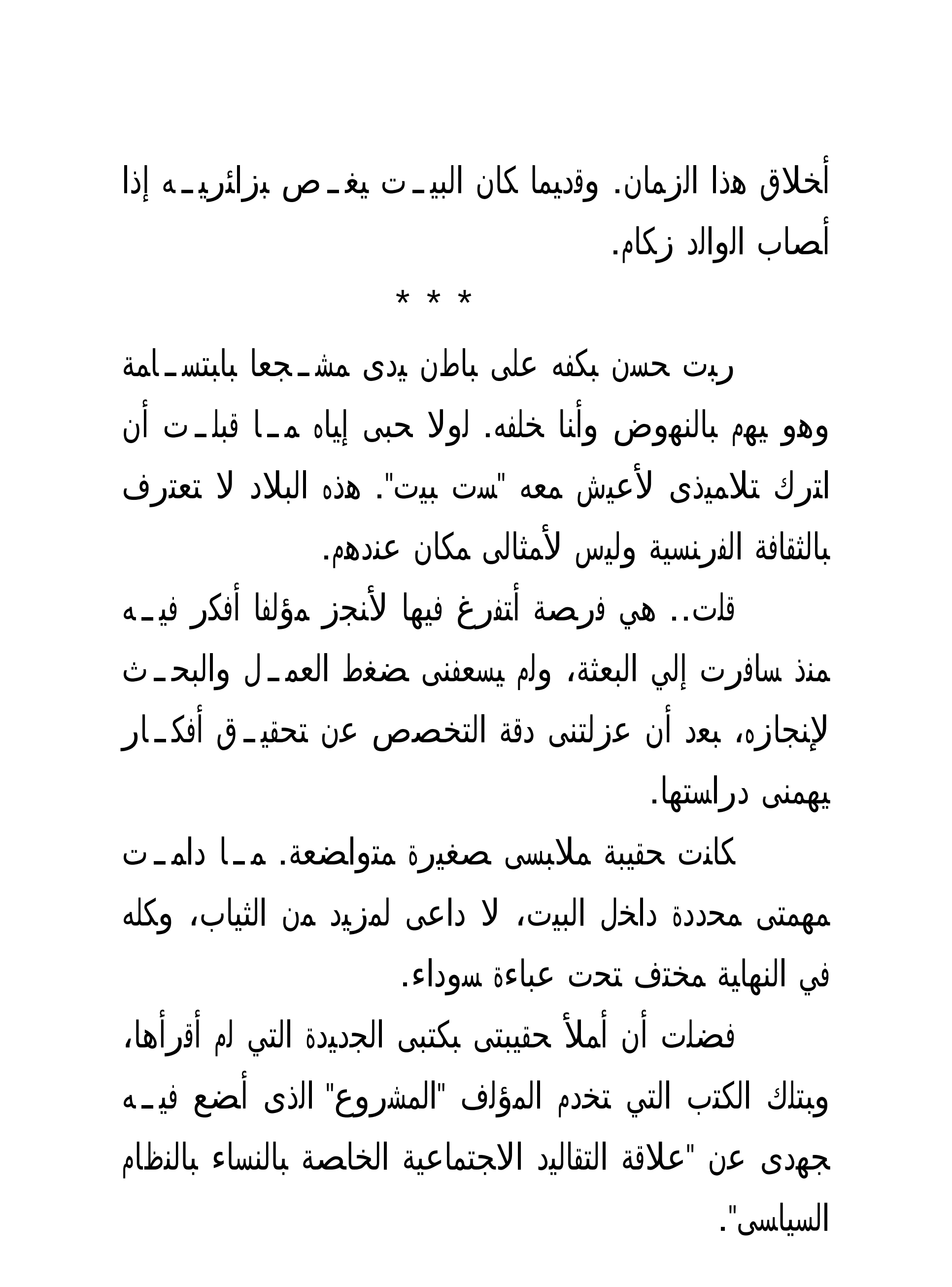
أثناء توديعه، همس لى سعد.. حاولى أن تتفهمـى.. لهذه البلاد أعراف اجتماعية مخالفة. قـد تكـون أحسـن أو أسوأ، لكنها مخالفة. اقبلى واقعهم، ولا تكونى عبئا يضـغط أعصاب حسن، فأنا أعرف أنه ماكره سفرا كهذا السفر الذى جعل منه أجيرا مرتزقا مع نبل عمله كاستشـارى لجراحـة المخ والأعصاب.

قلت.. أنا أيضا أعرف هذا.. إن لم يعترف بلسـانه، يشهد توتره الخفى بصحته.

وقلت هامسة لنفسى.. أمن العدالـة أن نـدفع ثمـن أخطاء الزعماء؟ ولماذا لم يعد السادات المصانع لأصـحابها كما أعاد الأرض الزراعية؟

تعقيبا على ثورة انفعال يسميها حسن " فضفضـة".. قال سعد.. هل تريدين المصنع؟ ماذا تفعلين به؟ بل ماذا بقى منه؟ إنه كقشرة جافة يتحلق حولها النمل فلا تريهـا. انسـى وعيشى حياتك واستمتعى فلن يعود ما فات.

لن أنسى يوم وفاة أبى. كان المشيعون نحـن، ولـم يعزنا أى من عماله. لم يأت أحد ليقول لنا كلمة عزاء. هـي



أخلاق هذا الزمان. وقديما كان البيـت يغـص بزائريـه إذا أصاب الوالد زكام.

* * *

ربت حسن بكفه على باطن يدى مشـجعا بابتسـامة وهو يهم بالنهوض وأنا خلفه. لولا حبى إياه مـا قبلـت أن اترك تلاميذى لأعيش معه "ست بيت". هذه البلاد لا تعترف بالثقافة الفرنسية وليس لأمثالى مكان عندهم.

قلت.. هي فرصة أتفرغ فيها لأنجز مؤلفا أفكر فيـه منذ سافرت إلي البعثة، ولم يسعفنى ضغط العمـل والبحـث لإنجازه، بعد أن عزلتنى دقة التخصص عن تحقيـق أفكـار يهمنى دراستها.

كانت حقيبة ملابسى صغيرة متواضعة. مـا دامـت مهمتى محددة داخل البيت، لا داعى لمزيد من الثياب، وكله في النهاية مختف تحت عباءة سوداء.

فضلت أن أملأ حقيبتى بكتبى الجديدة التي لم أقرأها، وبتلك الكتب التي تخدم المؤلف "المشروع" الذى أضع فيـه جهدى عن "علاقة التقاليد الاجتماعية الخاصة بالنساء بالنظام السياسى".

هو بحث خارج تخصص النقد، ولكن يشـبع رغبـة لدى في وعي أكبر بقضية جنسـى. ولا أخفـى انحيـازى بالعقلية الغربية مسبقا. المرأة عندهم أكثـر نضـجا وتفتحـا وإدراكا من نسائنا. حتى المتعلمات منـا مقيـدات بسلاسـل وهمية، لكنها مؤثرة. أعرف أنني سأطيح بكـل منهجيـات الدراسة لأصل إلي رأى في الموضوع. لدى إحساس بأن هذا الموضوع واجب اجتماعى يجب إنجازه، ولعلـه مـن أهـم الأبحاث التي يصب فيها الدارسون همهم ليصـعدوا درجـة أعلى.

* * *

لفحتنى حرارة الجو بالخارج، ورائحة زنخة، الهواء المشبع ببخار الماء والتراب له زناخة مقززة هذا أول ثمـن ندفعه. بعد أن دخلنا صالة المطار، انتعشنا بهـواء مكيـف بارد. هذا دور العلم.. والقدرة.

خرجنا من المطار إلي تاكسـى إلـي أحـد فنـادق المدينة.. اتصل حسن ببعض الأصدقاء من زملائه. بدأ توتر الغربة يتبدد حينما اطمأن إلي وجودهم. بعد وقت قصـير.. وصل أحد أصدقائه. اتصل من تليفون بالاستقبال. هبطنا إلي

كافيتريا الفندق. استشعرت حرج الدكتور عبد المنعم. قلـت له.. هناك ما يقلقك.

قال موجها خطابه لحسن.. الدكتورة فـائزة لماحـة وفرت على جهد المحاولة. حسن –كما ترى- الجلوس جميعا من الرجال. ليس مألوفا مجالسة النساء للرجال في الأمـاكن العامة، فلهذه البلاد أعرافها الخاصة.

عفوا دكتورة فائزة.. لا أقصـد.. لكـن واجبـى أن أنبهكم.

ابتسم حسن محاولا السيطرة على حـرج الموقـف فقلت:

شكرا لك يا دكتور. الحقيقة أنى أعرف هذه الأمـور ولكنى كنت أظن الفندق كمنزل الإنسان. لا حرج عليه. ثـم أتبعت ساخرة:

وكيف يتناول الناس طعامهم بالفندق. هـل يعزلـون النساء خلف ستائر مخملية ليستمتعن بالطعام بعيدا عن أعين الرجال؟

ابتسم محرجا وقال:

الحقيقة لا أعرف.

ثم نهض قائلا:

لم لا نسال؟

قال حسن:

لا سؤال ولا جواب. هيا بنا الآن نبحث عن مسـكن دائم. لن أقضى ليلة أخرى بالفندق.

قلت متوترة: هل يسمحون لى أن أتي معكم؟

قال حسن محاولا احتواء الموقف بتصنع المرح:

أظنه مسموح.

* * *

كلما دخلنا شقة، وكان حسن ينظـر إلـي الأبـواب والنوافذ ولا يعير جمال المكان اهتماما. كان يقـول "لا" دون انتظار رأيي. أحسست بشىء ما في تفكيره. وعندما قال "هذه تصلح"، اندفعت لأول مرة محتجة:

هكذا توافق دون استشارتي؟

ربت على ظهرى، وقال بهدوء أخجلنى:

أفهمك فيما بعد.

كنت غاضبة فبادرنى:

فائزة.. لا داعى للغضب. هنـاك أمـور لـم أشـأ إزعاجك بها. كنت أبحث عن مسكن آمن، هذا كل مـا فـي الأمر. أدهشتنى كلمته، آمن؟ من ماذا؟ اللصوص؟

قال:

حبيبتى.. المسكن الآمن ضرورى.. ولا تنسى فنحن في غربة، وليس لنا أهل يحموننا.

من ماذا؟

قال:

الغريب هنا مطمع. الناس لا تفهم تقاليدنا. بصـراحة يظنون أننا مجتمع بلا قيم.

المراهقون يحلمون بالنسـاء الأجنبيـات يظنـونهن مستباحات. سمعت عن مثل هذه الحوادث. لهذا اخترت فـي البيت الأمان ومن حسن حظنا أن حرارة الجـو الدائمـة، لا تسمح باستخدام النوافذ والشرفات. وكما ترين.. كل النوافـذ مغلقة. الحياة هنا داخلية. قلت منكـرة، وإن كنـت أدركـت معاناته:

هو الباستيل لا البيت.

قال معاتبا:

- ألم نتفق على الاحتمال؟
- قلت:
- لست غاضبة منك، بل من الظروف التى فرضت علينا خيارا قاسيا.

قال:

الناس يسلون أنفسهم بمشاهدة أشرطة الأفـلام فـي أجهزة الفيديو.

قلت باعتزاز:

لست من هؤلاء. أنت تعرف.. لدى ما يشغلنى.

قال بمودة صادقة:

أعرف، وهذا ما يريح نفسي من الألم بسببك.

أحسست أن من واجبى تشجيعه على الحياة الجديدة، فليس ذنبه أننا نعيش في مجتمع له أعراف مختلفة، فقلت:

- والآن عليك بتأمين احتياجاتنا.
- نهض وقال منبها مشيرا بإصبع يده:
- لا تفتحى قبل التأكد من القادم.

استخدمى عدسة الباب.

* * *

قال حسن في أمسية رومانسية:

- لم لا نفكر في إنجاب أخ لآبنتنا؟

دهشت منه. كان حسن صـاحب فكـرة الإنجـاب الواعى. أذكر كلمته.. نحن نختار متى ننجب. قلت له:

- أتريد أن تجعل مني أرنبـا؟ ألـم نتفـق علـى الانتظار؟

قال

أعرف، لكنى أحببت أن تجدى سلوى في وحدتك.

قلت في عصيبة:

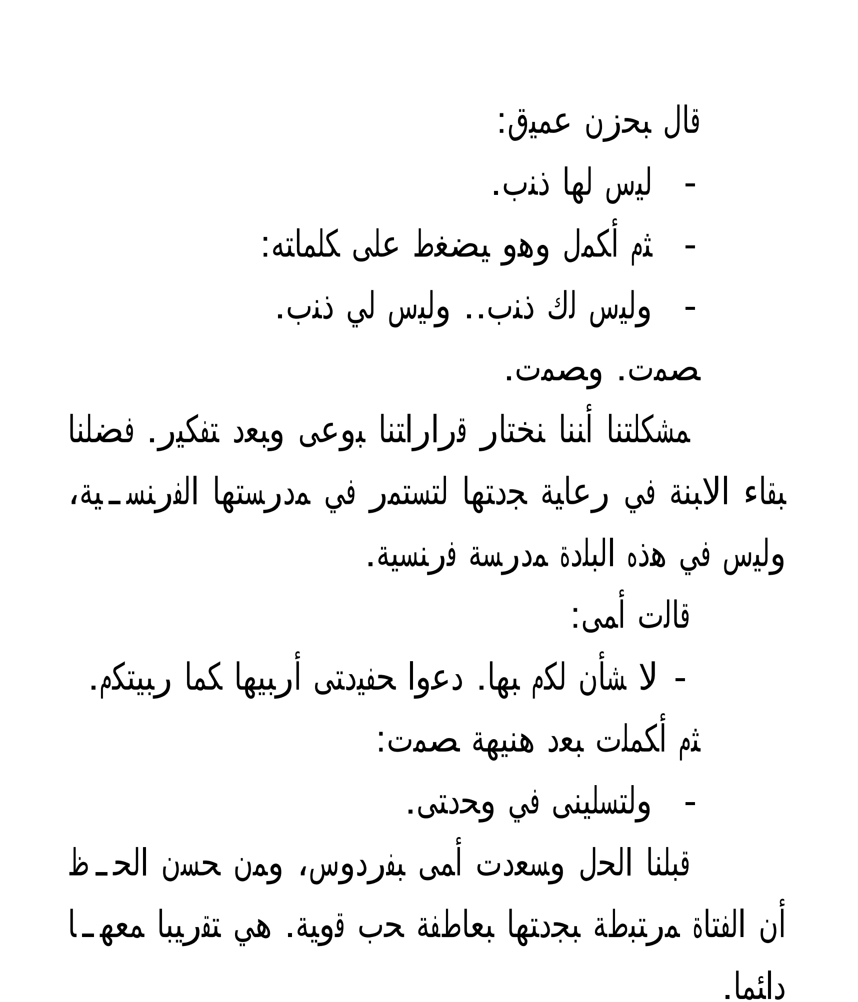
- لست وحيدة فمعى كتبى وأنت. الإنجاب لن يكون علاجاً للسأم، وألا.. ما الفرق بيني وبين زوجة البواب؟

قال موضحا أكثر:

- فائزة.. أردت أن أخفف بعض توترك. أنا ألاحظ كم أنت متوترة ضيقة بالحياة، ولم يمـض علـى حضورنا شهور.

- قلت:

ذلك لأنى بعيدة عن ابنتي. ما ذنب طفلة أن تحرم من أمها؟



قال بحزن عميق:

- ليس لها ذنب.
- ثم أكمل وهو يضغط على كلماته:
- وليس لك ذنب.. وليس لي ذنب.

صمت. وصمت.

مشكلتنا أننا نختار قراراتنا بوعى وبعد تفكير. فضلنا بقاء الابنة في رعاية جدتها لتستمر في مدرستها الفرنسـية، وليس في هذه البلدة مدرسة فرنسية.

قالت أمى:

- لا شأن لكم بها. دعوا حفيدتى أربيها كما ربيتكم.

ثم أكملت بعد هنيهة صمت:

- ولتسلينى في وحدتى.

قبلنا الحل وسعدت أمى بفردوس، ومن حسن الحـظ أن الفتاة مرتبطة بجدتها بعاطفة حب قوية. هي تقريبا معهـا دائما.

تراجعت.. لماذا وترت جمال الأمسية وضايقته. قلت لحسن أعيده إلي بهجة الليل:

- هيه أين سافرت؟

رفع وجهه وقال:

- فائزة. إن كان وجودك هنا مرهقا.. أحاول احتمال الوحدة وأعيدك إلي القاهرة وابنتنا. قلت له؟

- هل تستطيع؟

قال باستسلام:

- أحاول.

قلت بعاطفية:

لكنى لا استطيع.

قال:

- والحل؟

قلت:

نحن نحتمل الألم معا.. أتحملك وتتحملنى.

ثم قلت بتدلل:

- لن أغفر لك.

- ماذا؟

- أني لا أقدر على الاحتمال. لا اشاركك معاناتك.

قال وقد انفرجت ملامحه وابتسم:

- أنت أكثر من شريكة.. أنت كـل نفسـى. بـك أحتمل.

قلت: انسى ما حدث.

قال: لقد نسيت.. معك لا أذكر إلا سعادتي.

* * *

لهذا أحبه.

* * *

نبتهج بوصول رسالة من أهلى. كانت الرسالة هـذه المرة من الدكتور أحمد الزاوى. قدمها حسن وقال: "أونـدا" ترسل لك تحيتها وتدعوك لزيارتها في بلادها.

تساءلت:

لكننا في الشتاء وهي تسافر دائما في اجازة الصيف.

قال حسن:

السفر هذه المرة للعمل. في رسالته السابقة، قال لـى أحمد الزاوى: " أفكر أيضا في الخروج إلي ايطاليا، لا مـن أجل المال، وإنما لأحل مشكلة تؤرقنى. نحن نعيش أزمـة. وأزمتنا ليست أننا فقراء.. كلا. أزمتنا أننا فقدنا هويتنا.

صرنا وجها بلا ملامح. وحينما عرفت زينب بفكرة السفر، اتصلت بى منزعجة وقالت.. ومن يبقى إذا خـرجتم جميعا. قلت لها.. البركة فيك. قالت.. وما قيمتـى بـدونكم؟ قلت.. في هذا الزمان لا تبحثى عن القيمـة. ابحثـى عـن الفائدة. صار لكل قيمة ثمن. حتى الأخلاق صار لها ثمن".

وقال حسن:

يبدو أن أحمد الزاوى نفذ ما فكر به ورحل.

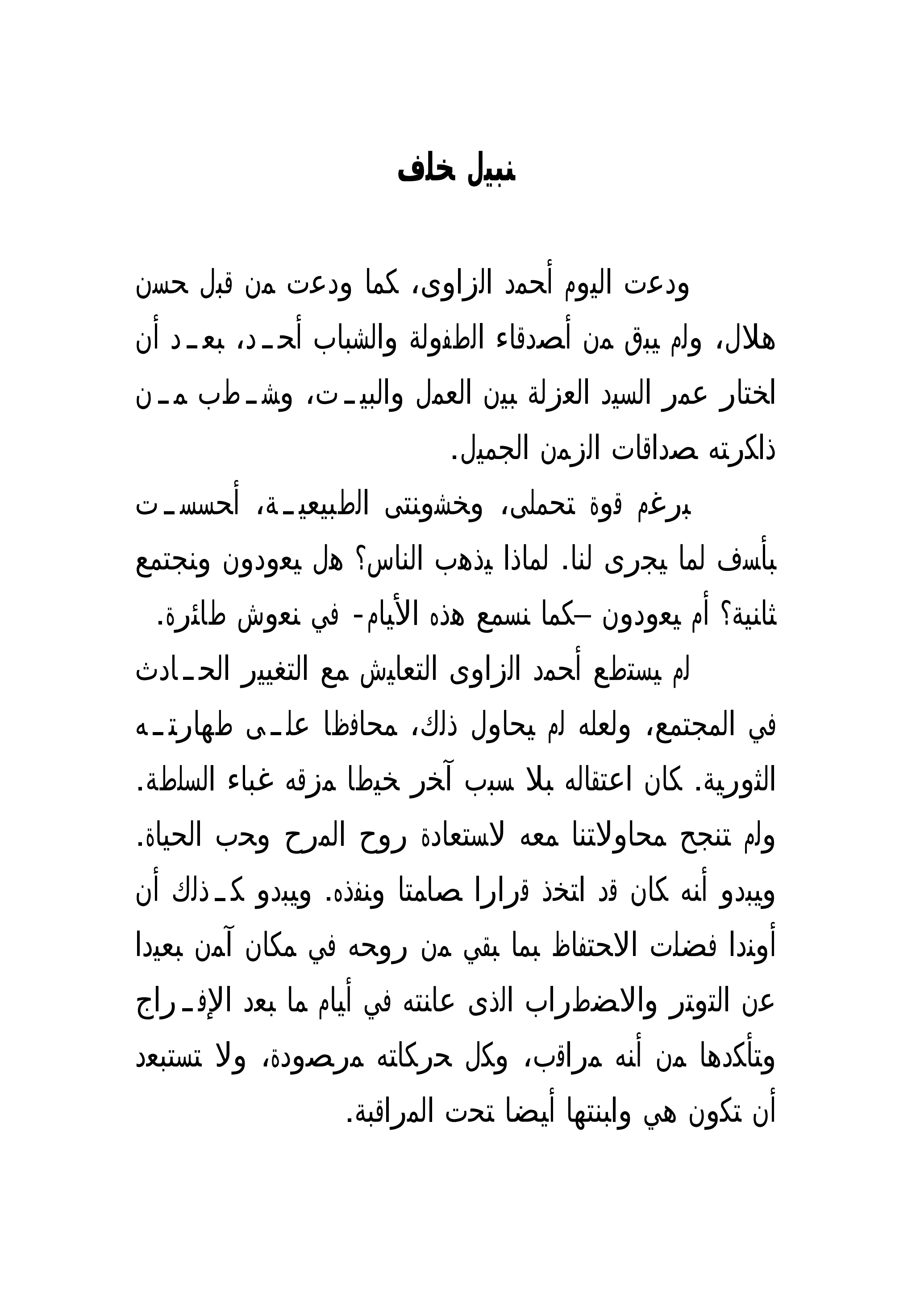
قلت لحسن بأسى:

قطعة جديدة من المأساة.

ردد بحزن:

نعم.. قطعة جديدة من المأساة.

* * *



نبيل خاف

ودعت اليوم أحمد الزاوى، كما ودعت من قبل حسن هلال، ولم يبق من أصدقاء الطفولة والشباب أحـد، بعـد أن اختار عمر السيد العزلة بين العمل والبيـت، وشـطب مـن ذاكرته صداقات الزمن الجميل.

برغم قوة تحملى، وخشونتى الطبيعيـة، أحسسـت بأسف لما يجرى لنا. لماذا يذهب الناس؟ هل يعودون ونجتمع ثانية؟ أم يعودون –كما نسمع هذه الأيام- في نعوش طائرة.

لم يستطع أحمد الزاوى التعايش مع التغيير الحـادث في المجتمع، ولعله لم يحاول ذلك، محافظا علـى طهارتـه الثورية. كان اعتقاله بلا سبب آخر خيطا مزقه غباء السلطة. ولم تنجح محاولاتنا معه لاستعادة روح المرح وحب الحياة. ويبدو أنه كان قد اتخذ قرارا صامتا ونفذه. ويبدو كـذلك أن أوندا فضلت الاحتفاظ بما بقي من روحه في مكان آمن بعيدا عن التوتر والاضطراب الذى عانته في أيام ما بعد الإفـراج وتأكدها من أنه مراقب، وكل حركاته مرصودة، ولا تستبعد أن تكون هي وابنتها أيضا تحت المراقبة.

قالت لزينب ذات مرة، وأخبرتنى بدورها في مكالمة خاطفة، أعقبتها زيارة خاطفة أيضا لبيتها:

أوندا قلقة، وتشعر أن بقاءها وأسرتها غير مرغوب فيه بعد أن تأكدت أنهم مراقبون.

بكت وقالت:

لا أعرف لماذا يحدث لنا هذا، وكل الأجهـزة مـن إذاعة وصحف تتحدث عن دولة الأمـن والأمـان وعصـر الديموقراطية. صدقينى يا زينب. انا أعرف أحمد، لا بصفته زوجى، لكن لكونه إنسانا وفنانا عظيما.. لا أعـرف لمـاذا تحدث له هذه المضايقات. وانهمرت دموعها باكية ثم قالت:

لا.. لن نستمر هنا. أحمد يريد السفر وأنا أوافقه.

ثم قالت مؤكدة:

زينب.. أحمد ليس شيوعيا.

قلت لها:

أنا واثقة من هذا.. اهدئى أوندا حتى نعـرف كيـف نتكلم.

قالت، ويجب أن يعرفوا هذا جيدا. نحن لا نريد منهم أى شىء.. فقط يسمحون لنا بالخروج.

قلت لزينب:

- وهل فعلت شيئا لهم؟

قالت:

- أتصلت بلواء بأمن الدولة وأكد لـى أن الـ دكتور أحمد الزاوى لا شىء عليه.

قلت له:

- ولماذا المراقبة؟

- ضحك وقال:

- لعلها حراسة لحمايته.

قلت:

- ممن؟

- ضحك ولم يرد.

- قلت لزينب:

- هل تصدقين ما قيل؟

قالت:

- لا أعرف.. لكن أحمد الزاوى ليس من النوع القلق بطبعه. من المؤكد أن هناك ما لا يعرفه.

* * *

عدت من المطار إلي الصيدلية التي نفـذ ديكوراتهـا أحمد الزاوى، وجعل منها قطعة فنية مبهرة. قال لى:

- ما دات سفينتك استقرت أخيرا على مرفـأ العمـل الحر، فلتكن صيدليتك أجمل صيدلية بالمدينة.

لا أعرف ماذا أريد، لكنى أقف أنظـر إلـي أرفـف الأدوية أرتبها. أدخل المعمل الصغير أنظـر إلـي ركـن التجميل. اتصلت بزينب وأخبرتها بسفره. أغلقت السماعة.

قالت وهي تودعهم ليلة البارحة:

- لن أتمكن من الحضور إلي المطار. سأظل بالبيت حتى يبلغنى الدكتور نبيل بسفركم.

وقالت لى:

- سأنتظر منك مكالمة فور وصولك.

ثم قالت بأخوة نادرة:

- دكتور أحمد.. قل إنك ستعود.. أنا أصدقك.

قال:

- نعم يا زينب.. سأعود حينما اشـعر أن لوجـودى بوطنى فائدة. رن جرس التليفون. قالت زينب:

- دكتور نبيل.. من فضلك هاجمتنى الأزمة. المغص يقتلنى.

قلت:

- أنا في الطريق إليك. خذى حبة من الدواء حتى أصل، وأحضر معى طبيبا صديقا. في بيتها كانت تعانى من حزن يائس.

أعطيتها حقنة فولتارين وقلت:

- ستستريحين الآن.

قالت:

- لن أستريح أبدا بعد الآن. وانهمرت دموعها.

قلت:

- زينب. ماذا بك؟ المفروض أن الأزمة انتهت.

قالت:

- لكن أزمتى لن تنتهى. أجهشت بكاء، وعلا صوتها.

نظر لى صديقى الطبيب وهو يهم بالخروج. قال:

- أزمتها ليست طبية. حاول أن تفجر أحزانها فقد تستريح.

وخرج. عدت إليها. قلت:

- من فضلك يا زينب اهدئى. ماذا بك؟ تكلمى.

قالت:

- وتكتم هذا السر أيضا؟

قلت معاتبا:

- هل أفشيت لك سرا من قبل؟

قالت:

- السر هذه المرة ليس مرضى.. هو أغلى وأهم.

اقتربت منها، وربت على ظهرها أرجوها أن تهـدأ، وتتكلم.

قولى يا زينب..بوحى بما يحزنك.

قالت:

- أحمد. أحمد الزاوى.

تساءلت مندهشا:

- ماذا به

قالت بتوسل وضحكها يختلط بدموعها:

- أحبه.

انفجرت الكلمة في وجهى.

زينب! بعد كل هذا الزمن وتلك العشرة، تعترف هـذا الاعتراف!

تماسكت وقلت:

- كلنا نحبه.

قلت محتجبة:

- لا يا نبيل. حبك له شيء، وحبي أنا شـيء آخـر. الآن فقط أتكلم. أعترف. بعد أن ذهب وذهبت معه أونـدا وفردوس.

قلت:

- زينب.. لا تعذبي نفسك. أحمد بخير.

قالت:

- أعرف. أنت لا تعرف ما أعرف. أحمد بخير لأنه نجا.

لم أقاطعها.. حملت مقعدا بـالقرب مـن سـريرها وتركتها تنساب.

قالت:

- كان التدبير محكما. وكان الهدف حـرق سـمعته وتلطيخ تاريخه. عرفت التدبير صدفة في جلسـة بمناسـبة

رأس السنة. كانت شعبيته بالجامعة تتسع، ومحاولة إشـاعة تحوله إلي الجماعة الدينية فشلت، فلم يبـق إلا الشـيوعية. فهمت كل شىء ورتبت له النجاة. ضحيت بقربى منه ليعيش ولو بعيدا عنى. ثم نظرت إلي بعين زائغة وقالت:

- أنت وعدت الكتمان.

قلت معاتبا.

- اتشكين بوعدى يا زينب.

قالت:

- لا اشك.. لكنى خائفة وحزينـة. وكـان وجـوده يمنحنى قوة كان اقترابي منه سعادة. تحصـنت بكبريـائى ونجوميتى لأستر حبى المستحيل.

قلت:

- كان بإمكانك أن تبوحى له بمشـاعرك.. وكـان سيقدر

قالت:

- نعم.. كان سيقدر وقد يشفق.. لكنـه لـن يبـادر بشعور مثله.

- لماذا؟

هزت رأسها وقالت:

- لأسباب كثيرة. أولها أنه يعرف زينب البائسة التي أخذ بيدها في أول حياتها، وثانيا لأن زينب التى عرفها لـم تكن محاطة ببريق النجومية، وثالثا لأن أحمـد الـزاوى لا تهزه نجومية أحد فهـو نجـم النجـوم، ورابعـا وخامسـا وعاشرا.. لأنه أحب أوندا وهي أحبته.

- وطول هذا الزمن تتعذبين بحبه وهو لا يشعر.

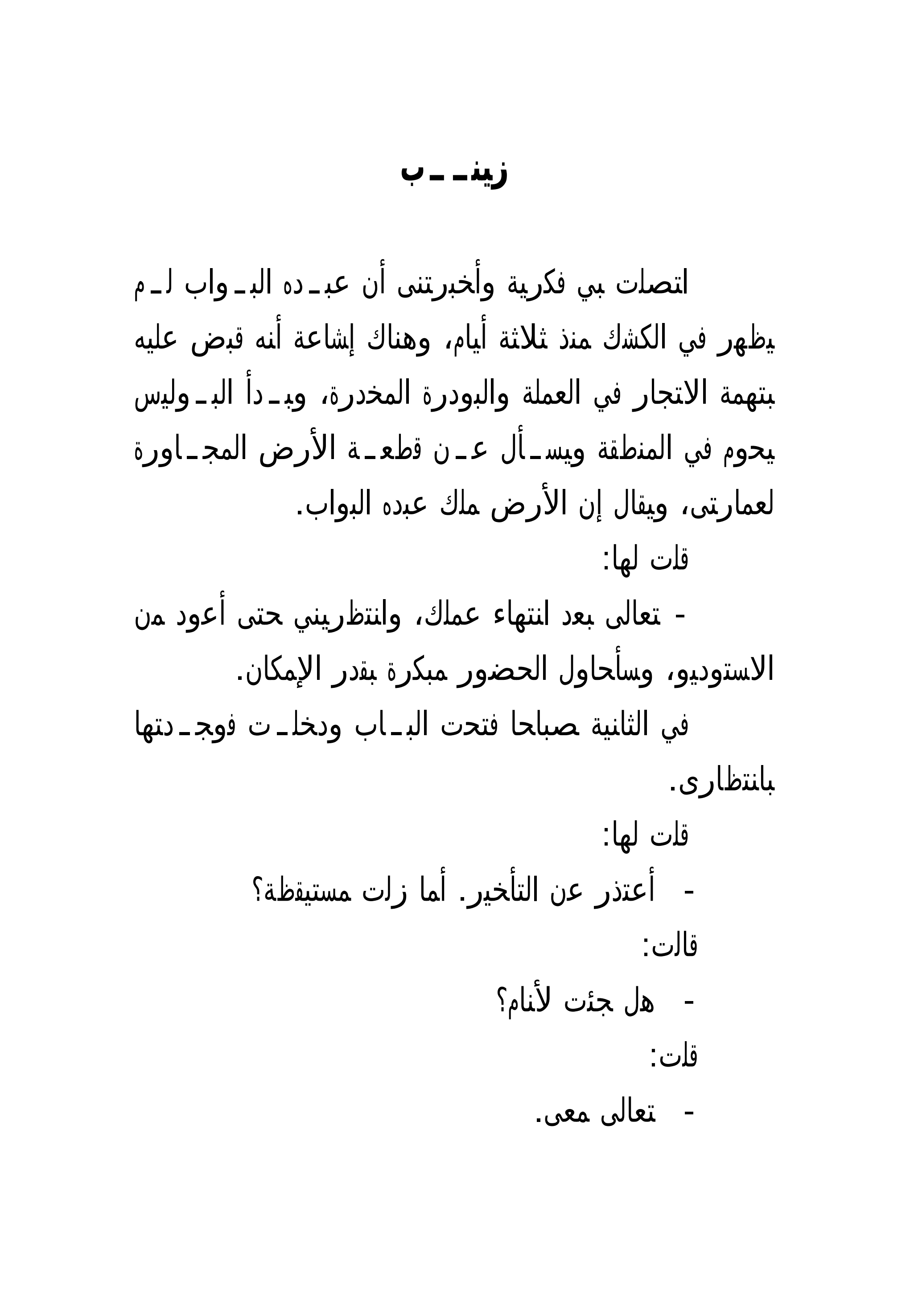
- لم أتعذب ابدا كنت سعيدة بالقرب منـه. سـعيدة بصداقته وصداقة زوجته، ثم ابنته. سعيدة بنصائحه.

-وأكملت بتحسر:

لكن، أين هو الآن منى، وأين أنا منه؟

قلت في صمت:

- هذه أعجوبة. الفنانة التي تنحنى لها الـرؤوس ولا تبالى بأحد، يشقيها حب قديم.



زينـب

اتصلت بي فكرية وأخبرتنى أن عبـده البـواب لـم يظهر في الكشك منذ ثلاثة أيام، وهناك إشاعة أنه قبض عليه بتهمة الاتجار في العملة والبودرة المخدرة، وبـدأ البـوليس يحوم في المنطقة ويسـأل عـن قطعـة الأرض المجـاورة لعمارتى، ويقال إن الأرض ملك عبده البواب.

قلت لها:

- تعالى بعد انتهاء عملك، وانتظريني حتى أعود من الاستوديو، وسأحاول الحضور مبكرة بقدر الإمكان.

في الثانية صباحا فتحت البـاب ودخلـت فوجـدتها بانتظارى.

قلت لها:

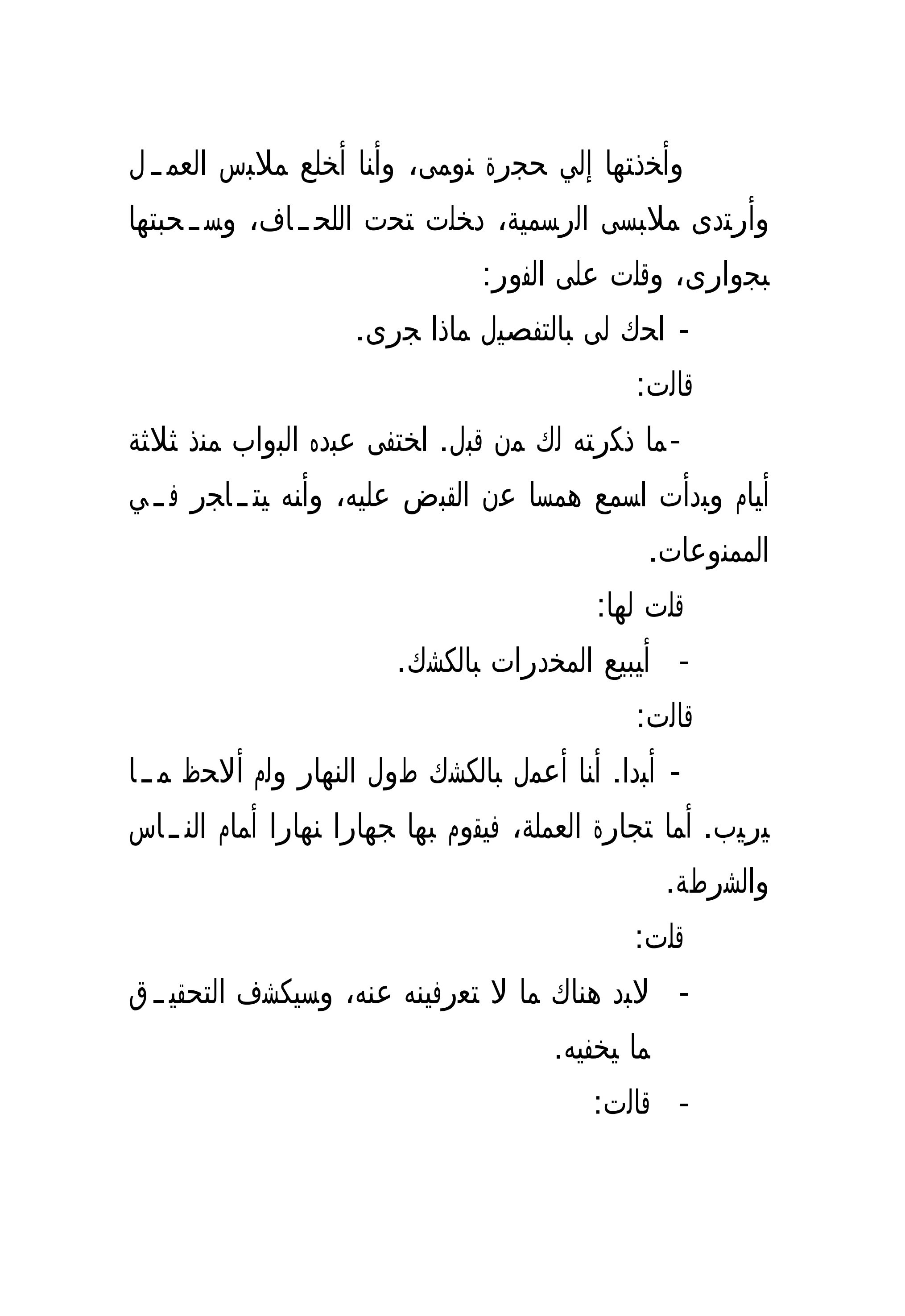
- أعتذر عن التأخير. أما زلت مستيقظة؟

قالت:

- هل جئت لأنام؟

قلت:

- تعالى معى.



وأخذتها إلي حجرة نومى، وأنا أخلع ملابس العمـل وأرتدى ملابسى الرسمية، دخلت تحت اللحـاف، وسـحبتها بجوارى، وقلت على الفور:

- احك لى بالتفصيل ماذا جرى.

قالت:

-ما ذكرته لك من قبل. اختفى عبده البواب منذ ثلاثة أيام وبدأت اسمع همسا عن القبض عليه، وأنه يتـاجر فـي الممنوعات.

قلت لها:

- أيبيع المخدرات بالكشك.

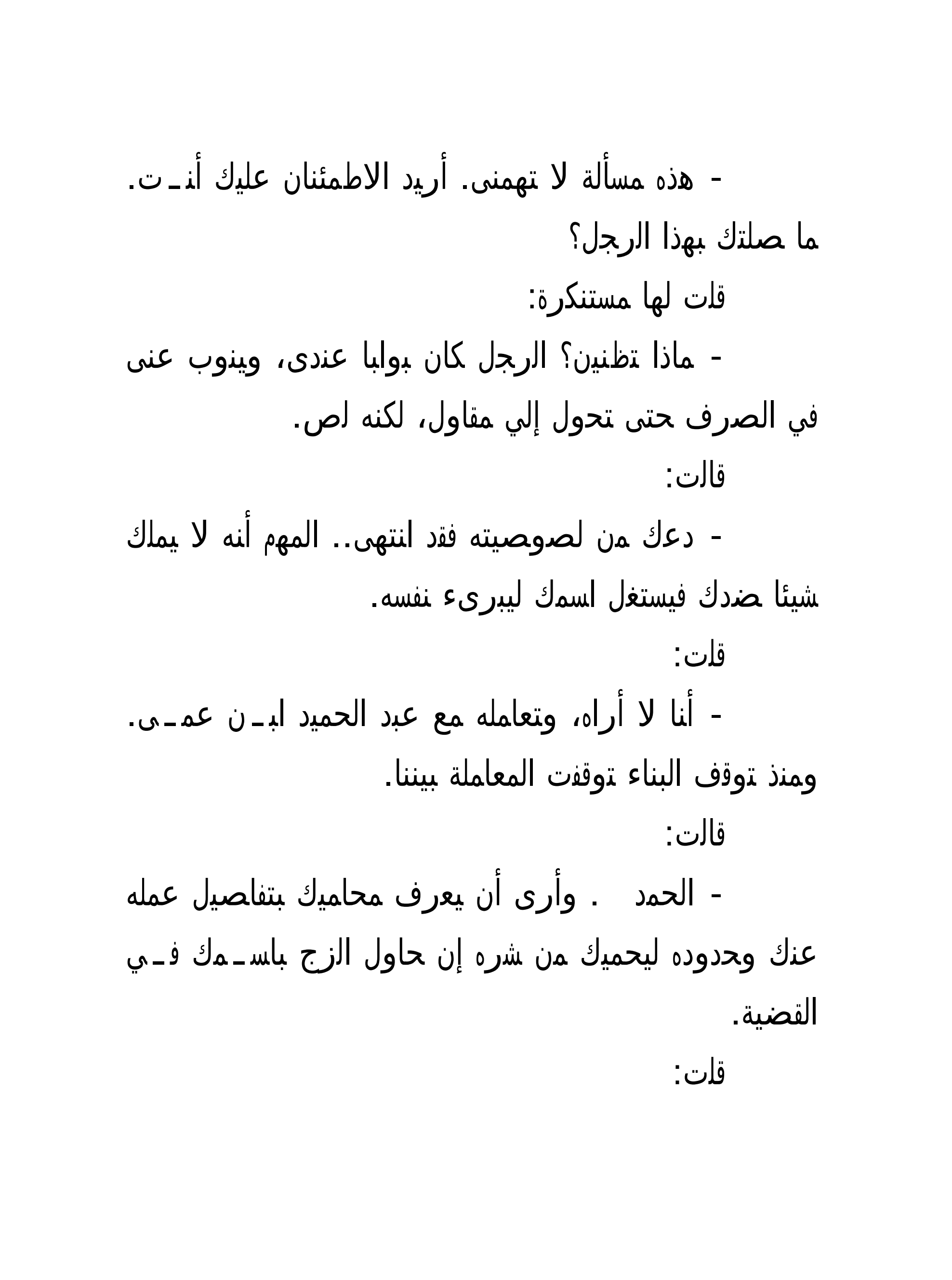
قالت:

- أبدا. أنا أعمل بالكشك طول النهار ولم ألاحظ مـا يريب. أما تجارة العملة، فيقوم بها جهارا نهارا أمام النـاس والشرطة.

قلت:

- لابد هناك ما لا تعرفينه عنه، وسيكشف التحقيـق ما يخفيه.

- قالت:



- هذه مسألة لا تهمنى. أريد الاطمئنان عليك أنـت. ما صلتك بهذا الرجل؟

قلت لها مستنكرة:

- ماذا تظنين؟ الرجل كان بوابا عندى، وينوب عنى في الصرف حتى تحول إلي مقاول، لكنه لص.

قالت:

- دعك من لصوصيته فقد انتهى.. المهم أنه لا يملك شيئا ضدك فيستغل اسمك ليبرىء نفسه.

قلت:

- أنا لا أراه، وتعامله مع عبد الحميد ابـن عمـى. ومنذ توقف البناء توقفت المعاملة بيننا.

قالت:

- الحمد   . وأرى أن يعرف محاميك بتفاصيل عمله عنك وحدوده ليحميك من شره إن حاول الزج باسـمك فـي القضية.

قلت:

- هذا ما سأفعله. لكنى أريد منك خدمة أخرى ..أن يفتش بعض من تثقين بهم المبنى فقد يكون استخدمه لتخزين ممنوعاته.

قالت:

- هذا لا يخيف، فالعمارة تحـت التأسـيس، وهـو الحارس عليها لا أنت.

اطمأنت وانتظرت ما يمكن أن يحدث لهذا الانسـان الشره. كشك سجائر ومرطبات وحراسة عمارة وتجارة عمله وممنوعات! ثم ماذا يا ترى؟

* * *

قال المحامى:

- هل بينك وبين المتهم أوراق مكتوبة؟

قلت:

- يطلب المال من ابن عمى، وأنا أعطى ابن عمـى وهكذا تصل إليه.

سألنى:

- نقدا أم بشيك؟

- لم يكن يحب الشيكات.

قال المحامى:

- إذن ليس بينك وبينـه شـىء يسـتحق التفكيـر، وسأزوره بصفتى محاميا وأدرس موقفه. ونصيحتى أن تنتهى من بناء العمارة بأسرع وقت.

قلت:

- أخشى أن يكون تلاعب بمواد البناء.

قال:

- هذه مهمة الاستشارى. يفحص الأسـاس والمبنـى ويكتب تقريره وننتهى.

قلت:

- هذا أفضل من الانتظار.

* * *

انتهت المحاكمة. بلغ مجموع الأحكام بحقه أربعـين سنة. بيع مواد مخدرة. اتجار بالعملة. دعارة. تزوير بطاقات شخصية وعائلية وجوازات سفر... أذهلتنى قائمة الأحكـام. أهو مؤسسة للإجرام.

* * *

قال لى المحامى:

- أنت بعيدة جدا عن دوائر تفكيره. إحساسـه أنـه استغل ثراءك ليجمع لنفسه بعض المال يبدأ به مشاريعه ولو بالسرقة، ولما اتسعت أعماله أهمل عمارتك. ولأنك لم تسألى عنه لم يتطوع بالسؤال عملا بمقولة.. إن كان معهـا حجـة تقدمها. بإمكانك أن تحصرى خسارتك فيما أنفقته من مـال. هذا كل خسارتك.

قلت:

- الحمد . المال يعوض.. أما السمعة فلا.

قال المحامى:

- انسى الموضوع برمته، واستأنفى نشاطك عادى.

قلت للصديقة القديمة:

سأجعلك مسئولة عن العمارة، فلدى عملى الذى يأخذ كل وقتى.

قالت متمنعة:

- أنا لا أفهم في العمارات. أنت بحاجة إلي مهندس.

قلت:

- افهمينى.. المهندس موجود. والعمال موجـودون. ليس لك شأن بأعمالهم. مهمتك إدارة العمـارة. التحصـيل..

الصرف على المبنى. أنت أختى ومحل ثقتى، ولك فيها شقة تختارينها للسكن والإدارة.

قالت:

- في هذه الحدود يمكننى العمل.

ثم سكتت كأنما تفكر وقالت:

- وماذا عن الكشك؟

قلت:

- وما شأنى به.

قالت:

- أفضل أن استمر في العمل بـه حتـى يسـتلمه أصحابه.

قلت:

- أفعلى ما تشائين.

* * *

عمر السيد

أكبر زلزال عشته في حياتى يوم خرج من الشـركة رجال الزمن الناصرى. العسـكر الـذين خلعـوا ملابـس العسكرية، واحتفظوا بعقلية العسكرية. لم أصدق أن غـرفهم الخالية ستجد من يجرؤ على اقتحامها. خرجـوا وتركوهـا. كانوا واثقين من العودة حين تحسم المعركة لصالحهم. كانوا يستهزئون بالرئيس الجديد. يقارنونه دائما بعبـد الناصـر.. المتوهج النشط الخطيب الآسر، أما السادات فهادىء رزيـن يبلع ريقه قبل الكلام. يتكلم بلغة الشيوخ. ويضبط الكلمات في فمه ويتذوقها قبل نطقها. كانوا يسخرون منه.. وكان حـذرا. في كل خطبه يأتى ذكر سلفه يردد عبارته التـي أصـبحت شهيرة مثيرة "جمال عبد الناصر.. ا يرحمه". كنت أبتسـم من مكره ودهائه، ولكن.. حينما أكون في البيت.. وحـدى.. لا يرانى أحد.. حتى زوجتى عواطف.. أتساءل:

" إلي أين تتجه يا سادات؟ وكيف تواجـه هـؤلاء؟ الجيش والشعب ومراكز القوى".

من يصفق للسادات، يهتف باسم عبد الناصر، حتـى الرئيس نيكسون وقف في الكونجرس بعد زيارتـه الشـهيرة لمصر يتكلم عن السادات فأخطأ وقال: "الرئيس ناصر". ثـم اعتذر وقال: "السادات. قالها: صادات". المرحلـة خطـرة، واللعب بالنار لا يناسب رب أسرة يريد أن يعيش مسـتورا. وضربة مراكز القوى، كانت رمية من غير رام.

* * *

أعترف أن السادات نفش ريشه بعد حرب أكتـوبر، ودانت له البلد بالزعامة، وخمد صوت كل معارضيه، بمـا فيهم الناصريين.. الذين طالما ردد عـنهم إحـدى مقولاتـه الشعيرة: "الناصريون أولادى". ولكنه لم يطـل اسـتمتاعه. تجمع معارضوه بشراسه أقوى.

ماذا تفعل يا عمر في هذا الزمن المرعـب؟ "كـش ملك". هذا هو الحل.. بمعنى أصح هو حبل النجاة لمن يريد أن يعيش في هذا الزمن. "أخلاق القرية".. يريد الرجـل أن يعيد الألفة إلي المجتمع.. يقوى الروابط المتفسـخة داخـل الأسر.. المشكلة أنه يخرج بمفاجآت مضحكة. هكذا يصـفها معارضوه.. أخلاق القرية.. قانون العيب.. الاحترام الـذى

ينشده تحول في لقاءاته مع الطلاب لي سخرية. لن أنسى هذا الطالب الذى وقف يكلمه، ولما نبهه الرئيس إلي احترام لغـة الخطاب، قال له ساخرا "يا والدى".

وأضحك الحضور والمشاهدين وتحول اللقـاء إلـي مهزلة.

انتهى كل شىء بانفجار الناس فيما أطلق عليه تعبيره الشهير "انتفاضة الحرامية" وراح ضحيته كثيـرون، ومـنهم أعز إنسان عرفته وأحببته واتخذته أخا.. صـديق عمـرى "أحمد الزاوى". جرى عليه ما جرى على كل مشـاغب. ذاق السجن والاعتقال. احترق نجمه، وانتهت أحلامه الشخصـية والوطنية. كيف أضـمن الاسـتمرار بـين هـذه الـزلازل والبراكين. ليس لى حل سواه. "كش ملك" أو "أنام في الذرة". ولا يحس بي أحد.. حتى تهدأ العواصف وتستقر الأحـوال. كش ملك.

* * *

أعرف أن الجميع غاضبون منى وأولهم نبيل خاف. تعمدت أن تكون علاقتنا كأى علاقة بين زملاء عمـل. لـم يستطع أن ينزل بالصداقة إلي درجة "زميل"، ولم أكن مستعدا

لأى مغامرة. هو صيدلى. إذا خـرج مـن الشـركة، يفـتح صيدلية. أما أنا فلا مكان لى إلا الشركة. برغم ذكائه.. الذى شهدنا له جميعا.. ذات يوم. ولم يفهم. وبدأ يبتعد. فضلت أن يسىء الظن بى وأنجو على حسن ظنه وأضيع. لدى أسرة.. ابنة. وابن. والهانم حامل. تشعر بسعادة وبطنها تمتد أمامهـا مترا، فهل أبكى على صداقة؟ كش مـلـك. وحينمـا تنجـاب الغيوم، نستعيد أيامنا الجميلة.. في أمان.

* * *

الوحيد الذى لم تمسه رياح التغيير من شلتنا القديمة.. حسن هلال. حمله قارب نجاة في بعثة إلي لندن بعد يـأس. وحمل زوجته قارب آخر في بعثـة إلـي بـاريس. وعـادا متدكترين.. هو بكلية الطب، وهي بقسم اللغة الفرنسية بكلية الآداب. عاشا بعيدا عن اهتزازات المرحلة. وأثبتـت الفتـاة الأرستقراطية أن الاستمرار ممكن تحت مظلة جميلة اسمها.. الحب.

زرت حسن هلال في بيته بصحبة زوجتى عواطف، ولم أكرر الزيارة مرة ثانية لنفور أنثوى طبيعى، أظنه غيرة عواطف من فائزة. لم تترك كلمه في قاموسها الهجـائى إلا

وصفتها بها.. بدءا من التكلف والتكبر أو "القنزحة" بلغتها، إلي الجسم الشبيه بالعروسة الحلاوة. مع أنى أشهد أن الدكتورة أضفت على الجلسة مرحا برقتها العفوية، وكرمها الذى لم يشبع عواطف النهمة، فآثرت إبعادها عن الاستفزاز، وفضلت زيارة حسن هلال بعيادته بعمارة حميه بوسط البلد.. بعد انتهاء مواعيد العيادة. وجعلت منها زيارة وتجارة. أطمئن فيها على صحتى بشكل عام. وكنت أخرج دائما بهداياه من عينات الأدوية والمقويات والمشهيات، التى كان يحذر أن تتناولها عواطف.

كنا نتبادل في مودة صادقة الضحك البرىء على شره الزوجة الذى قد يفسره الطب النفسى، فليس له أسباب عضوية، ودائما ما كان يردد معتذرا:

– هذا ليس أختصاصى فلا تورطنى معها.

* * *

حزنت على المصير الذى آل إليه أحمد الزاوى أخيرا، فأنا واثق، كما يثق كل أصدقائه، أنه لا يستحق الاعتقال. ولكن.. ماذا أقول إلا ما قاله حكيم.. إن الفتنة عمياء. وإذا كان السجن حلا فكان الواجب اعتقال الشعب كله

في سبتمبر، لا خيرة عقول البلد ورجالها، بل وأيضا نساءها. ولكن ماذا يفعل مثلى سوى السير على المبدأ الذى اخترته.. كش ماك. احتفظ بآرائك في قلبك. الحذار الحذار أن تفـيض بها على أحد في هذا الزمن الوغد.

* * *

لا أستطيع أن افهم ما يجرى. هذا التشظى المستمر. كل يوم قطعة عزيزة تنفصل وتطير إلي الخارج. حتى حسن هلال وفائزة، فرا إلي إحدى الدول الأغنى. لماذا؟ أينقصهما المال؟ لا أظن.

أما المأساة التي هزتنى من الأعماق، ونبهتنى أنى ما زلت أحس، وقلبى ما زال بجنبى، فهـروب النبيـل أحمـد الزاوى. أدركت إيزيس أن جراحه قاتلة.. فحملته بعيدا لعلها تلتئم.. طارت أوندا وفردوس بصحبته.

* * *

حزنى عليك شديد يا أعظم صديق.

* * *

حزنى على نفسى أعمق لأنى جبنت عن توديعـك. تركتك تمضى، ولم أجرؤ أن اقول لك "مع السلامة.. أو إلي اللقاء".

سأظل أعيش على أمل أن تلتئم جراحك وتعـود يـا أنبل من عرفت.. يا صديقى.. واعذرنى.

* * *

فكـريـــة

عندما رأيتها.. كانت ملامحها تغيرت، وامتلأ جسمها وإن ظلت محافظة على رقة طفولية فـي ابتسـامة رقيقـة. سعدية ابنة السيدة سيادة وكامل أفندي. هـذا.. بـلا شـك.. زوجها الضابط إبراهيم نصر. كبر العمر.. تخلـل المشـيب شعره. لكنه مازال قوى البنية.. يمشى باتزان رياضى وثقة. النظارة الشمسية ما زالت تلازمه.. وقديما كانت من لـوازم الأناقة.. أما اليوم، فتقيه وهج شمس مصر الجديدة المحرقة. يبدو أن الشابة الجميلة التي بجانب أبيها هي فـردوس ابنـة سعدية، لم أرها.. لكننى سمعت عنها. ترى.. من يقصـدون في العمارة، ولم يسكنها أحد جديد؟

كل السكان أعرفهم.

توقف المصعد بالطابق الثالث. إذن هما إمـا عنـد السيدة سناء أو المهندس حسام.

ترى.. هل تذكرنى السيدة سعدية؟ هل من اللائق أن أقدم لها نفسى؟

لا أعرف.

حينما نزلت.. تمهلت أما الكشك.. قالت لزوجها:

– اسبقنى يا إبراهيم.. سألحق بك.

تقدمت منى. ابتسمت لها. قالت:

– فكرية؟

فتحت باب الكشك وخرجت أصافحها.

احتضنتنى.

أصيلة يا سعدية. كيف عرفتنى؟

قدمت لها زجاجة بارد، فاعتذرت بسبب الرجيم.

قالت:

– عرفتك من كلام سناء عنك.

سناء؟ أعملت عقلى. سـناء؟ : تـذكرت. سـناء..

وأشرت بيدى إلي ركبتى وابتسمت.

قالت سعدية:

– زمن طويل يا فكرية.

وتابعت:

نعم.. سناء أختى.

قلت:

– كيف لم يخطر ببالى؟

قالت:

– يا لها من ايام!

قالت:

– امتدحتك سناء.. بخاصة عندما وقفت معها وقفـة رجال ضد مضايقات الجيران وأبنائهم.

قلت:

– كان سوء تفاهم ومضى.

سمعت صوت منبه السيارة فاستأذنت.

قالت:

– نلتقى عما قريب.

ركبت بجوار زوجها ومضوا.

* * *

سناء كامل.. صاحبة فضيحة الدور الثالـث.. هـي سناء ابنة العم كامل والسيدة سيادة! يا لها من مهزلة.

بدأت المعركة بمعاكسة شاب فائر الجسـم لجارتـه، وتطورت إلي الشرطة، بعد أن سبته بقولها:

– اخرس يا كلب.

فرد عليها متهجما:

– أنا كلاب يا.. فاتحة شقتك لل...

صفعته بكفها، فرد التحية بأحسن منها، وبتدخل الجيران، اشتعلت المعركة، وانتهت بتدخل الشرطة.

قال الشاب في التحقيق:

– نحن مسلمون ولا نقبل أن تفتح شقتها لكل من هب ودب. لا نعرف لها أهلا أو زوجا.

قالت أمام الضابط في ثبات وثقة:

– اخرس يا كلاب. أنا أشرف منك.

بسؤال فكرية قالت:

– يأتي إلي المنزل عصر كل يوم، وينزل بعد العشاء، رجل حسن المظهر.. يبدو عليه هدوء وثقة من يعرف طريقه. يتوقف المصعد به عند الطابق الثالث. ولأني أعرف بقية السكان.. خمنت أنه زائر السيد سناء هانم.

سألنى الضابط فأجبت:

– نعم. رجل واحد فقط.

سألنى عن مؤجر الشقة فأجبت:

– الشقة مؤجرى للسيدة سناء.

التفت الضابط إلي السيدة سناء متسائلا عن الرجـل، فقالت:

– إنه الأستاذ نافع عبد الكـريم.. زوجـى. رجـل أعمال. وهذا عقد الزواج.

قال الشاب منفعلا:

– هل يترك الزوج زوجته وحدها كل ليلة؟

قالت سناء:

–اخرس يا كلب.. أتتجسس على؟

وقال له الضابط:

– اخرس وإلا حجزتك.

قال الضابط لسناء بكلمات مهذبة وأسلوب بارد:

– من حقك أن نستكمل الإجراءات، ونحول المـتهم إلي النيابة بتهمة الاعتداء بالضرب عليك.

نظرت بدورها للضابط ببرود وثقة. قالت بهدوء:

– لا داعى لذلك، وهو ما زال صغيرا. أفضـل أن يتعهد بعدم التعرض لشخصى.

* * *

صحبتنى بسيارتها الصغيرة إلـي المنـزل. كانـت غاضبة لما حدث لها.. وصاخبة. منفعلة، وهي تهتف:

– تافه.. تافهون.. لا يهتمون إلا بالظواهر.

لم أشأ مغاضبتها بأسئلة فضـولية تسـتفزها، فمـن الواضح أنها شديدة الثقة بنفسها. هي.. والحق يقال.. امـرأة منضبطة. تخرج إلى عملها صباحا، وتعود منه عصرا، ولا تخرج من بيتها.. تقريبا.. إلا الصباح التالى.

اليوم الوحيد الذى تمضيه خارج المنزل.. هو يـوم الجمعة.

تذهب إلي النادى.

قبل نزولنا من سيارتها، قالت:

–في يوم ما سيعرفون من أنا.. وقتها سيفهمون.

هززت رأسى موافقة لأنهى موقفا مفروضا علـى. قالت:

– لكل إنسان ظروف خاصة.

قلت:

– أنت زوجة ثانية.

قالت:

– نعم.. وهذا اتفاق ارتضيناه، فهو له أولاد وأسرة، وأنا لى معاش زوجى الشهيد.. وهو يساعد على المعيشة في غلاء هذه الأيام.

تشجعت وقلت:

– زواج عرفى؟

هزت رأسها وأكملت:

– كان شرطى عليه، حتى أطمئن إلي نجاح الزواج، قبل أن نعقد عقدا جديدا حسب نظام المجتمع. قلت:

– هو زواج أمام ا والناس.

قالت:

– بالطبع.. أنا لا أحب الحياة في الظلام.

دعوت لها بالسعادة وخرجت من سيارتها.

* * *

أحمد الزاوى

لم أحتمل. قررت العودة.

خافت أوندا. قالت بإحساس الناجى من الخطر:

– يجب أن تقدر جهود من ساعدونا. لم يكن الأمـر سهلا. لولا اتصالات العزيزة زينب، ما أمكن أن نكون هنا. ماذا ينقصك هنا.

قلت بتصميم:

– يجب أن تعيدى أنت التفكير. هل تسـعدك حيـاة التشرد التى أحياها؟

فقدت الإحساس بقوتى. إحساس عميق بالوحشة يدمر روحى. الغربة.. الهروب.. الخوف.. هموم أصعب احتمـالا من هموم المعاناة في الوطن. اشعر أني فقدت كـل شـىء: هويتى.. ذاتي.. إنسانيتى.

السجن أهون كثيرا من الهروب.

قالت:

– هي فترة مؤقتة نبتعد حتى تتحسن الأحوال.

قلت:

– لا أحتمل الغربة. أنت لا تدركى معاناة الهـارب. أنت هنا في وطنك، أما أنا فغريب.. ضائع.

أتعرفين ما إحساس الهارب؟

إنه مدمر لأنه إحساس جبان.

قالت:

– أنت تضخم الأشياء. عشت هنا من قبـل.. أربـع سنوات من أجمل أيام عمرك. هكذا اعترفت لـى. أم كنـت تكذب؟

قلت:

– تلك ظروف البعثة. ما أعانيه إحسـاس مختلـف. كان خروجى مشروعا في سبيل الوطن. أتعلم لأخدم وطنى.. أرفع من شأنى. أما الوضع الحالى، فعذاب.

قالت:

– نحن في أول الطريق. بدأنا نستقر، وابنتنـا هنـا بالجامعة,. ألا تراعى مستقبلها؟

قلت:

– هذه ليست مشكلة أبدا. ما تكلميننى عنه يمكن حله. أما أنا فلمشكلتي حل واحد.. أعود.

تابعت بعد أن جذبت نفسا عميقا محاولا التخفيف من حدتى:

– بإمكان فردوس البقاء والاستمرار فـي دراسـتها هنا، وبإمكانك يا عزيزتى البقاء معها إذا شئت. أما أنا فيجب أن أعود إلي الوطن. بعدها.. أخرج وأعود كما أشاء.. وقتما أشاء. هكذا أسترد ذاتى. أستعيد روحى.

قالت بصدق نادر:

– أنت تعرف أنـي لا أتركـك مهمـا حـدث. إذا صممت.. أعود معك.

قلت بهدوء المستريح بعد اتخاذ قرار حاسم:

– نعم.. مصمم.

رددت على الفور:

– وأنا معك.

* * *

في المساء... أثناء استراحة إعلانية، قبل عرض فيلم السهرة، قالت أوندا:

– فردوس قررت العودة معنا.

قالت فردوس باندفاع المحب:

– كيف أبقى هنا.. وحـدى.. فـي ظـروف غيـر مستقرة. هذا كثير على. لا أحتمله. إذا كنت قررت العـودة، فلنعد كلنا.

قلت بهدوء:

– كما ترين يا حبيبتى.. غير أنى أرى لاسـتمرارك هنا مبرره. أنت هنا كما كنت أنا من قبل. هي فتـرة إعـداد وتعلم. أنا لست ضد الخروج الهادف. أنا ضد الهروب. لذا، يجب أن أصحح وضعى وأعود.

رددت الابنة:

أقدر عذابك يا أبي، وأرجو أن تضع له النهاية التـي ترضاها. وما دمت ترى أن تعود، فيكن هذا قرارنا جميعـا. أعود إلي الوطن معكما، ثم أختار بعد ذلك ما يمكـن فعلـه. أختار بإرادتى الحرة، لا بما تفرضه علينا ظروف قاهرة.

* * *

عند اتصالى بالصديق نبيل خاف، طار حماسه عبـر الهاتف كلمات مندفعة خاطفة. قال بفرحة حقيقية:

– هذا قرار عظيم.. أنتظرك.. عد بسرعة. اطمئن. متى؟ ما رقم الرحلة؟ أى ساعة؟

– قلت أهدئ حماسة المندفع:

– غدا، اكتب رقم الرحلة والتوقيت.

قال:

– اطمئن. ستجدنى بانتظارك. لن أكـون وحـدى. كثيرون ينتظرون. ستكون معى العزيزة زينـب. اطمـئن.. الأحوال تتحرك إلي الأحسن. اطمئن.

قلت:

– مهما تكن الأحوال.. أنا قادم.. كلنا آتون معا.

تمــت